5 me Année, No. 225
Lundi - 25 - 10 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ شعبان سنة ١٣٥٦ — ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة		
١٧٢١	أى زمان هذا ؟ .. ... :	أحمد حسن الزيات .. ..
١٧٢٣	الحظ العاكس ... ... :	الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
١٧٢٥	طائفة سرية عجيبة . ... :	الأستاذ محمد عبد الله عنان ...
١٧٢٨	التشريع والقضاء فى العهد الفرعونى	الأستاذ عطية مصطفى مشرفة .
١٧٣١	الاجتهاد لا يركو مع الفوضى :	الأستاذ على الزين ... ...
١٧٣٥	مصطفى صادق الرافعى . :	الأستاذ محمد سعيد العريان ...
١٧٣٨	الكميت بن زيد . ... :	الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ..
١٧٤١	جون ملتون . ... :	الأستاذ خليل جمعة الطوال ...
١٧٤٣	الاسلام فى غرب افريقية :	الأديب جمال الدين محمد الشيال
١٧٤٦	قتل الأديب .. .. :	الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
١٧٤٨	حنين إلى الوطن لشاتوبريان الفراشة للامارتين ...	السيد عارف قياسه . ...
١٧٤٨	إحياء النحو (قصيدة) :	الأستاذ أحمد الزين . ...
١٧٤٩	يومونا (قصة) .. ... :	الأستاذ دريني خشبة ... ...
١٧٥٣	معرض عظيم للحضارة الرومانية	
١٧٥٤	ضوء جديد على تطور الأجناس — تمثال لبلزاك — أفريقية مستودع الماس	
١٧٥٥	ذريعة وباريكاد — الصلات الثقافية بين مصر وجاراتها الشرقية	
١٧٥٦	أخبار أبى تمام للصولى (كتاب)	لأستاذ جليل . ...
١٧٥٨	النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة : الأستاذ محمد عرفة ...	

أى زمان هذا ؟ !

فرغ الشيخ منصور من قراءة « الأهرام » ثم ألقاها من يده الراعشة على الوسادة وقال بلهجة الساخط القانط : « أى زمان هذا ؟ » هل أتى أمر الله وقامت القيامة ؟

وكنا خليناه لنفسه ساعة شغلها بالنظر فى الجريدة ، وشغلناها فى شأن من شؤونه . فلما تحرك هذه الحركة العصبية ، وقال هذه الجملة التعجبية ، أقبلنا عليه نستفهم الأمر ونتاقله الحديث . والشيخ منصور هـذا فقيه نابهٌ من فقهاء الأزهر القديم ، قضى عمريه [1] فى خدمة الدين وعلومه وهو على الحال القروية الأولى من بساطة الطعام والمنام والملبس ، فلم يشْك داء ولم يشرب دواء قط !

أولاده مثقفون مترفون ، يشغلون المناصب الرفيعة ويسكنون المنازل الأنيقة وينعمون بمتع الحضارة ؛ ولكنه لايزال هو وزوجه الشيخة يعيشان فى دارها العتيقة فى حى الباطنية على النمط الأول : يأتدمان بالفول ، ويتفكهان بالتمر ، ويستصبحان بالزيت . ولا يخرجان — إن خرجا — إلا لصلة

(١) العمران ثمانون سنة

رحم أو لزيارة ضريح . والشيخ لاينفك يحمد الله على أنه لم يركب سيارة ، ولم يغش قهوة ، ولم يشهد حفلة ، ولم يتعلق بشئ من أسباب الدنيا إلا بما لابد منه لسلامة البدن والدين ؛ فلولا أنه يقرأ الصحيفة كل صباح ، ويسمر مع نفر من تلاميذه كل مساء ، لكان بينه و بين هذا العالم المتغير « كمال الانقطاع » . وهو اليوم يدخل فى حدود التسعين من سنيه قطيعَ القيام قعيدَ الغرفة ، إلا أنه سليم الحواس شاهد اللب ؛ ويرى أن الفضل فيما يتمتع به من طول العمر ونقاء الجسم وفراغ البال ، إنما يرجع إلى الإيمان بحكمة الله والرضى بقسمة القدر . وبلغه أن قوماً من العلماء يسكنون فى أحياء الأغنياء ، ويستطيلون على الناس بالجاه والثراء ، وأن أحدهم بلغ من ترفه وسرفه أن اشترى ثلاجة بعشرة جنيهات ، فاستهال الخبر ، وتعاظم الأمر ، ثم بكى وقال : ياحسرتا على الدين والعلم ! إن العالم إذا امتلأت عينه من الدنيا ، فرغ قلبه من الدين !

سأله أحدنا : ماذا قرأت يا مولانا في الجريدة فأنكرته على الزمان ؟ فأجاب بلهجته تلك :

« حرب داخلية فى الغرب ، وحرب خارجية فى الشرق ، وحرب عالمية تترقب فى البحر ، وتتوثب فى البر ، وتنزى على ألسنة الساسة المساعير من أبناء المدنية وربائب الحضارة ؛ ثم سقوط الفرنك فى سورية ، وحبوط السياسة فى فلسطين ، وهبوط القطن فى مصر ، وقنوط الناس فى كل مكان من صلاح الحال وانفراج الأزمة ؛ ثم وباء الدنج الذى يؤازر الملاريا والأنفلونزا على خمود الحياة وشل الحركة . لقد كنا لا نرى الموت إلا حيث تكون الشيخوخة الفانية ، ولا نسمع بالمرض إلا قُبيل الموت المرغوب ، ولا نعرف من الأطباء إلا طبيب المركز يوم يزور القرية كل أربع سنوات ، فيأمر بتسوية التلال ، وكنس الأزقة ، ورش الحيطان الخارجية بالجص ؛ وكانت النفوس راضية مطمئنة تسبح فى فيض من نعم السلام والدعة ، لا يُرمضها حقد على إنسان ، ولا يقلقها حرص على شئ ؛ وكان الناس لا يعلمون عن أوزار الحرب إلا ما يتسقطون من أنبائها الحين بعد الحين بين العثمانيين والمسكوف ؛ وكانت السلامة أدوم ، والأعمار أطول ، والأرزاق أيسر ، ورحمة الله أقرب ، وأمة الرسول بخير

أما اليوم فكأنما أصاب الناسَ سُعار من الجحيم فلا يبرحون بين عمل دائب ، وهم ناصب ، وطمع شره ، وتنافس دنئ ، وعداوة راصدة . ثم فشا الطب ففشا المرض ، وانتشر العلم فانتشرت الجريمة ، وفاض الخير وغاضت البركة ، واستبحرت المدنية المادية فخفَتَ بين ضجيجها الآلى صوت الضمير ، وهلك فى عبابها المزبد سلام النفس . وكان الظن بالمدنية والعلم أن ينزعا من نفوس بنى الإنسان غرائز الحيوان ، ويهيئا لهم حياة الجنة التى حرمتهم إياها رذيلة الطمع . فهل رُفع الإيمان من الأرض حتى عم الناس هذا البلاء ، وأصاب العلماء منه ما أصاب الجهلاء ؟

فقلت له ياشيخنا ! كان عدد الناس فى صدر أيامك قليلاً ، وخير الله بالنسبة إليهم كثيراً ؛ فكانت الحياة وادعة ، والنفوس قانعة ، والجوارح عَفَّة ، والجوانح سليمة . و براءة الصدور من الحسد تصل قطيعة القلوب بالألفة ، و ترفه لغوب العيش بالمعونة ؛ وخلو البال من الهم يدفع المرض عن الجسم ، ويصد الرذيلة عن الروح . فلما جاءت المدنية الكاذبة وفرت وسائل الصحة ، ومدت أسباب الأمن ، فزاد النسل أضعافاً مضاعفة ، وكثرت الحاجات كثرة فاحشة ، فتزاحم الناس على موارد الرزق ، وتكالبوا على مواد العيش ؛ ثم أيأستهم هذه المدنية من عزاء الدين ، وشككتهم فى ثواب الله ، وأرابتهم فى غَنـاء الخُلق ، فعادوا فى حضارتهم الزاخرة بعجائب العلم كأوابد الوحش ، لايقودهم إلا غريزة الحى ، ولا يحكمهم إلا قانون الحياة . والله وحده يعلم كيف المصير

فقال الشيخ منصور فى تسليم المصدق واستسلام المؤمن :

« الأمر لله يا بنى ! لا يقع فى ملكه إلا ما يريد . نسأله تعالى أن يبقينا فيكم على سلامة ، ويخرجنا من دنياكم على خير »

احمد حسن الزيات

الحظ المعـــاكس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

الذين يعتقدون أنهم مضطهدون فى الحياة وأن كل من فى الدنيا وما فيها من ناس وأشياء يناوئهم ويكيد لهم ويناصبهم معذورون، وإن كان الأطباء يقولون إن هذا مرض؛ فقد تتوالى المصادفة على وتيرة واحدة لا تختلف أو تتنوع حتى يكبر فى وهم المرء أن هناك عمداً، فيروح يعذر ابن الرومى الذى حكوا أنه كان إذا رأى النوى مبعثراً أمام باب البيت يرتد داخلاً ويقعد عن التصرف فى يومه ذاك إيثاراً لطلب السلامة مما يتوهم أنه لا محالة ملاقيه من السوء والشر

حدث يوماً أنى بكرت فى القيام من النوم ليتيسر لي أن أكتب ما ينبغى أن أكتبه فى ذلك اليوم، ثم أخرج لقضاء عدة حاجات لا سبيل إلى إرجاء واحدة منها. فأما الكتابة فاستحالت لأن الآلة الكاتبة تعطلت لعلة لم أستطع أن أهتدى اليها، ولأنى لم أجد فى البيت كله لا حبراً ولا قلماً ولا شيئاً مما يستطيع المرء أن يكتب به، فابتسمت — فما بقيت لى حيلة — وقلت: « صدق المثل ... باب النجار مخلع » وحدثت نفسى أن هذا يفسح الوقت لقضاء الحاجات الأخرى، فارتديت ثيابى وخرجت من الشقة متوكلاً على الله، فلم أكد أضع رجلي على الدرج حتى زلت قدمى، فنهضت متوجعاً على يدى ورجلي فقد هاضنى الاصطدام بالدرجات وحدثت نفسى أن ساق على الأقل لا ينقصها هـذا الرض الجديد، ثم نفضت التراب عن ثيابى — بحكم العادة فان السلم نظيف — ومضيت متحاملاً على نفسى إلى « الجراج » ولكن السيارة أبت كل الاباء أن يدور محركها. ولست حديث عهد بالسيارات ولا أعرفني عجزت عن علاج حرانها إذا كان لأسباب عارضة، ولكن الأمر استعصى على فى ذلك الصباح حتى كدت أجن، فتركتها واستأجرت سيارة وفى ظنى أنها أسرع من الترام وما إليه، فلم نكد نقطع كيلو واحداً من الطريق حتى عرض للسائق راكب دراجة خرج فجأة من زقاق، فأراد السائق أن يتقى أن يدوسه ويزهق روحه فاصطدم بحافة الرصيف وكاد يقتلني أنا أو يحطمني على الأقل. فنقدت الرجل ما استحق من الأجر وقلت: الترام أسلم — وكنا عند محطته، فوقفت ثلث ساعة أنتظره وهو لا يجيء لسبب لا أدريه؛ وأنا أحتمل الشيء مهما طال، ولكنى لا أحتمل الوقوف خمس دقائق، فأحسست أن بدنى قد تضعضع وأن ساقيّ أصبحتا لا تقويان على حملى، وإن كنت دقيقاً خفيفاً — وزناً لا دماً — ورأيت مركبة خيل مقبلة فأسرعت إليها وركبتها، والقارىء أعرف بمركبات الخيل، وأكبر الظن أنه رأى كيف ينام الجواد وهو يوهمك أنه يجر المركبة ... ما علينا ... سرنا دقائق بسرعة كيلو وربع في الساعة وإذا بالترام الذى نفد صبرى وتهدم جسدى وأنا أنتظره يدركنا ويمر بنا كالبرق الخاطف ويتركنى أتحسر على العجلة التى صدق من قال إنها من الشيطان لعنه الله. وأوجز فأقول إن كل باب طرقته فى ذلك اليوم الأسود ألفيته مسدوداً، وإن كل رجل أردت أن ألقاه وجدته مسافراً أو مريضاً، فأقصرت خوفاً على الباقين الذين كنت أريد أن أقابلهم أن يدركهم الموت. ولا شك أن ابن الرومى كثرت تجربته لأمثال هذه المصادفات فصار يؤثر اختصار الأمر والنكوص من البداية اتقاء لمانات الخيبة التى مل تكررها ولم يكن يجد فيها لذة وله العذر

وأذكر أنه كان معنا فى المدرسة الابتدائية تلميذ مجد مجتهد وذكى بارع، وكان حرياً بالنجاح والسبق فى أى امتحان، ولم يكن لأحد منا أمل فى مزاحمته، ولكنه كان قبل كل امتحان يصاب بمرض يقعده عن أداء الامتحان. وكنا نحن على نقيضه لا نصاب بمرض حتى ولا بزكام خفيف، وكان يتفق أن ينذرنا المدرس أنه مختبرنا غداً مثلا فى الجغرافيا فتهبط قلوبنا إلى أحذيتنا، فقد كانت الجغرافيا أثقل ما نتلقاه من المعارف والعلوم فى المدارس الابتدائية لأنها كانت عبارة عن أسماء خلجان وأنهار وجبال ورؤوس وبلدان ليس إلا؛ وكان حفظ هذه الأسماء التى لا آخر لها يسود نور الضحى فى عيوننا، ولا أعلم ماذا كان يفعل سواى، ولكنى أعرف أنى كنت أنشد المرض بكل وسيلة أعرفها فأروح أقف ساعة وساعتين فى تيارات الهواء، وأصب الماء البارد على رأسى فى الشتاء وأتركه مبلولا للهواء وفى مرجوى أن أزكم أو أحم فلا يحدث من ذلك شىء، وأضطر إلى الذهاب إلى المدرسة فما بى بأس يصلح أن يكون مسوغاً للتخلف وأعاني

الاختبار الذى أنذرنا به ، وألق جزاء العجز عن الحفظ ، وتمضى الأيام وأنا صحيح معاف ، وإذا بأحد المدرسين يبشرنا أنه سيذهب بنا إلى حديقة الحيوانات فى يوم كذا فنفرح ونعد طعامنا ونعنى النفس بيوم جميل نلعب فيه وننط ونمتع العين بمنظر القرود والفيل ذى الخرطوم — أبو زلومة كما نسميه — والأسود . ويصبح الصباح الذى أحلم به فأهم بأن أرفع رأسى عن الوسادة فاذا به أثقل من حجر الطاحون ، فأستغرب وأتحسسه فلا أجده مشدوداً إلى شىء ، فأسأل أمى فتقبل على وتجسنى ثم تقول : « أنت سخن .. لا بد من شربة حالاً » فأصيح : « ولكن كيف أذهب إلى جنينة الحيوانات إذا شربت شربة ؟ » فتقول : « جنينة الحيوانات ؟ إنت مجنون ؟ نم نم ... لا جنينة الحيوانات ولا غيرها ... » فأتحسر وأقول لنفسى : « بقى يا رب تشفينى يوم امتحان الجغرافيا وتمرضنى يوم جنينة الحيوانات ؟ الأمر لله » وأرقد وتجىء الشربة فأتجرعها بكرهى ، وبعد ساعتين اثنتين تهبط درجة الحرارة إلى الحد الطبيعى

ومن غرائب الدنيا أن فيها متزوجين يسخطون على نسائهم ولا يريدونهن — ولا يدرى أحد لماذا تزوجوهن إذن — ورجالا يطلبون الزواج ولا يجدون النساء الموافقات ، وفقراء لا يكادون يجدون الكفاف ولهم من البنين تسعة أو عشرة أسماء يأكلون الزلط كالنعامة ؛ وأغنياء يسر الله لهم الرزق وأدر عليهم أخلاف الثروة يشتهى الواحد منهم أن تكون له طفلة واحدة ولو كانت عوراء أو كسيحة . وترى بنات دميات ثقيلات الدم والروح يتزاحم الشبان عليهن ويطرحون أنفسهم تحت أقدامهن وهن لا يردنهم ولا يشجعنهم ويرفضن أن يكن زوجات لهم وإن كانوا صالحين وأحوالهم حسنة وسيرهم مرضية . وترى بنات جميلات رشيقات ممشوقات يفتن العابد بالحسن والظرف وحلاوة الطبع وطيب الحديث وبراعة الذكاء ، ولكنهن مسكينات لا يرغب فيهن أحد ولا يباليهن مخلوق ولا يحلم بوجودهن لا شاب ولا كهل . قالت لى مرة واحدة من هؤلاء الجميلات المسكينات — أعنى النبوذات — إن أغلب ظنها أن النحس هو كل حظها من الدنيا . فتألمت وقلت لها : « يا شيخة حرام عليك ... أهذا كلام تقوله شابة فى العشرين من عمرها ؟ » قالت : « هذا اعتقادى ... وأى شىء هناك يغرى بالأمل ؟ . . إن الناس يطلبون المال » قلت : « مالك جمالك وعقلك وحسن تدبيرك وأخلاقك الطيبة » قالت : « أشكرك ولكنك لن تستطيع أن تحيي أملاً مات ... إنى أدرى منك ... » فتذكرت فتاة هى مثال مجسد للدمامة وثقل الدم وقلة العقل فقلت : « إذا كانت فلانة قد وفقها الله إلى زوج صالح كريم ... » فقاطعتنى وقالت : « هـذا هو الذى يحدث دائماً ... أليس حظ فلانة هذه مدهشاً ؟ من كان يتصور ؟ ألهم لا اعتراض ... » قلت : « إنك ما زلت صغيرة فاصبرى » قالت : « بالطبع ... ثم إنه لا حيلة لى إلا الصبر ولكنه لا يسعنى إلا أن أرى وأتعجب ... هل تعرف إن كل من زارتنا خاطبة — وإن كانت لم تصرح ببواعث الزيارة — ذهبت ولم تعد ؟ ... وليس هذا فقط بل سمعنا من معارفنا أن هؤلاء الزائرات الخاطبات عبنني بكيت وكيت (وذكرت لى عيوباً ليس فيها شىء منها) وإن كل حديث جرى مع أبى فى أمر زواجى انتهى بالانقطاع بلا سبب نعرفه » فلم يسعنى إلا أن أرثى لها . فليس كل ما تعانيه إبطاء الحظ عليها بل شر من ذلك الإيلام الذى تحدثه صدمة الخيبة كلما نشأ الأمل . وقد كان من أثر ذلك أنها صارت تجنح إلى التمرد أحياناً على المجتمع وعلى حالاته وما يكون بين الناس فيه ؛ فلولا أن لها من عقلها وحسن تربيتها وازعاً قوياً ...

وقالت لى مرة وأنا ماض بها إلى بيت خالة لها : « شف ... أنا لا أخرج قط إلا مع أبي أو أخى أو معك أحياناً .. ولكنى واثقة أن الناس يعرفون وجهى ولا يعرفون صلتك بنا سيروننى اليوم وواثقة أيضاً أنهم سيعتقدون أنك ... أنك ... غريب ... وأنى خارجة معك للنزهة أو ... وأنى بالاختصار بنت فاسدة الأخلاق ... وواثقة فوق هذا أنهم سيعنون بأن يذيعوا هذا عنى كأن لهم ثأراً عندى ... فما رأيك ؟ »

فقلت لأخفف عنها : « المصيبة واحدة ... أنا أيضاً رجل تقى ورع أخاف الله وأتقيه ولي زوجة وأولاد ؛ وأنا واثق أن ناساً يعرفوننى ولا يعرفونك سيروننا فيقول كل منهم فى سره أولصاحبه : شف ... شف ... أما إن معه لبنتاً !!! يا ابن الـ ... »

فضحكت فقالت : « هذا أحسن ... ليس فى وسعنا أن نصلح الكون إذا صح أن به حاجة إلى الاصلاح ، ولكن فى وسعنا دائماً أن نتلقى ما تجىء به الحياة بابتسامة حلوة كابتسامتك وإن لم يرزق كل إنسان مثل هذا الفم الجميل »

وهكذا الدنيا دائماً ...

إبراهيم عبد القادر المازنى

في تاريخ الجمعيات السرية

طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

تتمة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان عهد القيصر اسكندر الأول أصلح عهد لنمو الحركات الروحية السرية في روسيا. ففيه أنشئت في بطرسبرج عدة محافل سرية لمزاولة الشعائر والتجارب الروحية، وكان قوام هذه الحركة عدة من سيدات الطبقة العليا مثل البارونة بكشفدن ومدام تاتاريوفا. وكان الأكابر والخاصة يشهدون هذه الحفلات الروحية التي اشتقت رسومها وشعائرها من رسوم بعض الجمعيات السرية الوثنية قبل جمعية « أهل الله » وطائفة « سكوبتسى » ذاتها؛ ووقع القيصر نفسه تحت تأثير البارونة فون كرودنر الشهيرة، وهي سيدة اشتهرت يومئذ بنزعتها الصوفية والروحية وكان لها أكبر الأثر في توجيه سياسة القيصر، وفي سير الحوادث والشئون؛ وكان القيصر يعتقد أن مؤازرة هذه الحركات الروحية هي خير وسيلة لمكافحة حركة البناء الحر (الماسونية) والجمعيات السرية الأخرى التي كانت منها طائفة « سكوبتسى »، ولكن طائفة « سكوبتسى » أو طائفة المجبوبين لقيت في عهد اسكندر الأول كما قدمنا فترة صالحة للنمو، واستطاعت بما خول لها من الحرية والتسامح أن تلم شعثها، وأن تنشط لإذاعة مبادئها، واستطاعت بالأخص أن تنفذ إلى الطبقات المستنيرة التي لم تصل إليها من قبل. وغدا سليفانوف في شيخوخته كأنه ملك غير متوج تحج إليه الوفود من كل صوب، وتنهال عليه العطايا والمنح؛ وكثرت أموال الطائفة، واشتد نفوذها، وقدم اليانسكي وهو زعيم الطائفة الفكرى إلى كبير الوزراء رسالة وصفها عن مبادىء الطائفة ومثلها، وفيها يبرر إجراء « الجب » بحرارة، ويقترح على القيصر مشروعا للاصلاح السياسي تنقل بمقتضاه السلطة الفعلية إلى طائفة « المجبوبين »، ويبقى القيصر رئيس الدولة بالاسم تحت زعامة سليفانوف الروحية؛ فأثارت هذه الجرأة اهتمام القيصر وحكومته بأمر المجبوبين مرة أخرى، وقبض على اليانسكي، وسجن في أحد الأديار. أما سليفانوف فقد ترك حراً نظراً لشيخوخته وضعفه، بعد أن وعد بالكف عن الدعوة إلى الجب والاقتصار على الدعاية الروحية

على أنه لم يف بهذا الوعد، بل استمرت الدعوة الهمجية وذاعت بين طبقات كثيرة، واعتنقها عدد من الأغنياء وذوى النفوذ، وبلغ عدد المجبوبين في هذه الفترة آلافا كثيرة. وانتظم في سلك الطائفة يومئذ وصيف سابق للامبراطور بطرس الثالث (فيدوروفتس) يدعى كوبليف، وأخذ يؤكد أن سليفانوف إنما هو القيصر بطرس بلامراء، وأن القيصر اسكندر يعرف جيداً أن جده يعيش بين المجبوبين منذ عهد بعيد؛ وأسبغ سليفانوف على هذا الداعية لقب « النبي »؛ وهكذا أصبح سليفانوف يزعم أنه المسيح وأنه القيصر معاً

واكتشف حاكم بطرسبرج الكونت ملورادوفتش أن ابني أخيه قد وقعا في شرك « المجبوبين » وأن أحدهما قد كابد بالفعل عملية الجب فثار سخطا؛ وضاقت حكومة القيصر ذرعاً بهذا الاجتراء المجرم الذي لم تنج منه حتى طبقة النبلاء، فانتدبت في سنة ١٨٢٠ لجنة سرية للتحقيق. وبعد البحث قر قرارها على اعتقال سليفانوف. وفي الحال اعتقل الداعية، ولكن في رعاية ورفق، وأقصى في دير سوزدال؛ فارتاع أنصاره، وحاولوا السعي لإطلاق سراحه، ولكن الحكومة كانت هذه المرة جادة ثابتة العزم. ولما رأى الزعماء أن السلطات تتربص بهم وترقب حركاتهم عمدوا إلى أساليب السرية القديمة، وأخذوا يعملون في الخفاء، ويتظاهرون بأنهم من أخلص أنصار الكنيسة، ولكن السلطات قبضت على معظم زعماء الطائفة وزجتهم في مختلف الأديار والقلاع. وتوفى سليفانوف في معتقله سنة ١٨٣٢؛ ولكن « المؤمنين » يعتقدون إلى اليوم أنه حى، وأنه سيعود ليتولى السلطات في روسيا ويقيم يوم الحساب على نحو ما يعتقد الدروز في عودة الحاكم بأمر الله

ولم يخمد نشاط هـذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن التاسع عشر ، بل لبثت دعوتها تتسرب إلى جميع الطبقات ؛ ونفذت الدعوة إلى الجيش بكثرة ، وا كتشفت السلطات مئات من « المجبوبين » فى كرونستات وفى القوقاز ، وأمر القيصر أن تؤلف من هؤلاء الخصيان فرقة خاصة فى الجيش . وفى سنة ١٨٤٢ قدم جند هذه الفرقة إلى القيادة بلاغاً قالوا فيه إنهم لا يعترفون بالقيصر ، وإن القيصر الحقيقى هو بطرس الثالث الذى اعتقل فى سوزدال وأعلنت وفاته كذباً ، فقبض على زعماء الفرقة ونفوا إلى سيبيريا

وتوالت محاكمات دعاة « السكوبتسى » خلال القرن التاسع عشر ، وأدمجت فى قانون العقوبات الروسى العقوبات الآتية : وهي أن يعاقب الشخص الذى يقوم بتشويه نفسه بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الذى يقوم بتشويه (بخصى) شخص آخر بستة أعوام فى الأشغال الشاقة ؛ ويعاقب الدعاة بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الشخص الذي يقوم بإيواء الدعاة فى منزله عقاب مرتكبي جريمة التشويه

ومن أشهر قضايا « المجبوبين » فى هذه الفترة ، محاكمة وقعت سنة ١٨٦٩ أمام محكمة جنايات تمبوف ، وفيها حكم بالنفى على مكسيم بلوتتزين ، وهو تاجر غنى كان يأوى فى منزله تسع نساء مشوهات ؛ ذلك أن هذه الطائفة البربرية كانت تجتذب إليها النساء أيضاً ، وكان تشويه النساء يجرى بقطع أجزاء من الثديين أو بانتزاعهما ، وكذلك بتشويه أعضاء أخرى ؛ وكان يخرج من هؤلاء النسوة المشوهات بين آونة وأخرى «مريم» تزعم أنها أم المسيح المزعوم . وكان بلوتتزين من أكابر الدعاة ، وكان يعتبر من «أنبياء» الطائفة وله نفوذ عظيم فى الولاية كلها . وفي سنة ١٨٧٦ ، كانت محاكمة رنانة أخرى أمام محكمة جنايات مليتوبول ، وفيها ظهر أمام القضاة مائة وستة وثلاثون مجبوباً حكم على معظمهم بالنفى . وكانت هذه المحاكمة الشهيرة خاتمة حركة سرية واسعة النطاق تعدت حدود روسيا إلى رومانيا ، وذهب ضحيتها مئات من الفلاحين والعمال . وكان الدعاة قد أخذوا إزاء اشتداد المطاردة فى روسيا يتسربون إلى رومانيا وهنالك أسسوا لهم « محافل » سرية فى ياسى وجلاتز ؛ وظهر فى جلاتز بين الدعاة شخص يدعى ليسين وهو روسى من موسكو ، وكان يمتاز بنوع من الهيام الصوفى ، فالتف المؤمنون حوله ولقبوه « بالمنقذ » وزعموا أنه القيصر بطرس الثالث . وصرح ليسين لأنصاره أنه أعظم من المسيح ، لأنه أتى لأجل المجد وليس كالمسيح لأجل المأساة ، وأسبغ صفة الأنبياء والحواريين على عدة من أنصاره ؛ وذاعت الدعوة الجـديدة فى رومانيا بسرعة ، وهرع الخصيان من كل صوب لتحية المسيح الجديد ؛ وبعث ليسين رسله يبشرون بقيامه ؛ ثم سار بنفسه فى حفل من أنصاره إلى بطرسبرج ليقدم نفسه إلى « القيصر الظاهر » ؛ ولكنه اعتقل مع زملائه فى الطريق ؛ وقامت السلطات بتحقيق واسع النطاق فى أمر المجبوبين استغرق أربعة أعوام ، وقدم إلى محكمة مليتوبول مائة وستة وثلاثون متهماً ، وكان جلهم من الفلاحين ومعظمهم شبان ومنهم شيوخ قلائل وأحداث لم يجاوزوا الخامسة عشرة ؛ وكانت فى الواقع أشهر محاكمات هذه الطائفة السرية المدهشة

واعترف بعض «الأنبياء» المتهمين أثناء المحاكمة بكثير من أسرار الطائفة وإجراءاتها ورسومها الوثنية ؛ ولكن ليسين « المسيح والقيصر » صرح أمام قضاته بأنه غير مذنب ، وأن المؤمنين قد اختاروه وفقاً للنبوءات المقدسة ، وأن رسل الطائفة يبشرون بالمسيح الجـديد وفقاً لتعاليم الانجيل ، وأنه لا يزال على عقيدته مخلصاً لمبادئه ورسالته ، وأنه منذ شبابه يبحث عن السلام والحقيقة فلم يجدها إلا لدى طائفة «سكوبتسى» ؛ وألقى آخرون من الدعاة تصريحات روحية وفلسفية ، وأشادوا بنقاء المثل التى ينشدها المجبوبون ؛ وقضت المحكمة في النهاية على ليسين بالأشغال الشاقة ستة أعوام ، وقضت على آخرين من الأنبياء بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة ، وقضت على معظم المتهمين الآخرين بالنفى إلى سيبيريا

وفى أوائل هذا القرن بعد ثورة سنة ١٩٠٥ سمح «للمجبوبين» أن يختاروا مكان إقامتهم ، فهرع كثير منهم إلى روسيا ؛ وقدر عدد المنتمين إلى الطائفة يومئذ فى روسيا بخمسة عشر ألفا ، وجرت بعد ذلك عدة محاكمات أخرى اتهم فيهـا الدعاة بالتحريض على « الجب » وقضى على مئات منهم بالسجن والنفي

* * *

وفى ظل النظام البلشفى استطاعت الطائفة أن تجوز العاصفة

بسلام بالرغم مما لحق زعماءها الأغنياء من فقد ثرواتهم وأملاكهم الواسعة ؛ ورأى الدعاة أن يسايروا النظام الجديد اجتناباً للمطاردة وقام منهم داعية يدعى ارماكوف ، فوجه إلى جميع « المؤمنين » خطاباً مفتوحاً يناشدهم فيه أن يجانبوا الغنى والكبرياء والشح ، وأن يعودوا إلى الحياة الأخوية الساذجة التي دعا إليها سليفانوف ، واقترح أن ينتظم أبناء الطائفة في جماعات روحية مشتركة ، ووضع للطائفة نظاماً تعاونياً جديداً على أساس الشيوع ؛ وحمل ارماكوف على الاختلاط الجنسي ، ووصفه بأنه أعظم عقبة تحول دون تحقيق الصفوة الانسانية لمبادئ الحياة الرفيعة ؛ وتبعه داعية آخر يدعى منشنين ، وأذاع في سنة ١٩٢٨ رسالة قال فيها إن مصائب الانسانية كلها ، وجميع المنازعات والجرائم والحروب ، هي نتيجة النزعة الجنسية ؛ ثم يقول ما يأتي : « ما الذي يدفع إنساناً إلى الاختلاس والجريمة ؟ هي النزعة الجنسية . وفي كل مكان نرى عيادات الأمراض السرية ، وفي كل يوم تقع آلاف من حوادث الاجهاض وقتل المواليد ؛ ولقد كان العالم وما يزال غاصاً بالبغاء والبغايا ، وكل ذلك يرجع إلى فعل الأعضاء الجنسية » ويقترح منشنين كعلاج لهذه المحنة الانسانية أن يعاني الرجال عملية « الجب » في سن النضج ، ويقول إن ذلك لا يضير الانسانية في شيء

وفي سنة ١٩٢٩ اكتشفت السلطات السوفيتية محافل سرية للمجبوبين في موسكو ولننجراد ، وظهر من التحقيق أن الدعاة يرتكبون جريمة التشويه ، ويبشرون في اجتماعاتهم السرية باقتراب حكم القيصر بطرس الثالث ؛ فقبض على كثيرين من الزعماء والدعاة ، وحوكموا أمام المحكمة الثورية ، وقضى على كثير منهم بالسجن « لأنهم يذيعون خرافة دينية تقترن بها فائدة مادية ، ولأنهم ارتكبوا جرائم الضرب والجرح » . ووقعت في سنة ١٩٣٠ محاكمة رنانة أخرى في لننجراد حيث قبض على كثيرين من أعضاء الطائفة وبينهم عدة من أكابر الأغنياء السابقين ، وعدة من العاملات ؛ فقضت المحكمة على الزعماء بالسجن ، ولكنها قضت ببراءة الضحايا من العمال والعاملات . وظهر من التحقيق أن الطائفة تعمل بنشاط في جميع أنحاء روسيا ، وأنها تبذل كل الوسائل وكل صنوف الإغراء لاجتذاب الأنصار ، وأنها لا تحجم عن ارتكاب صنوف الافساد والوعيد والعنف لتحقيق غايتها ؛ وأنها تستظل في دعايتها ببعض نصوص الانجيل والتوراة ، وتمد إلى خصى الأطفال وبذل العطايا للفقراء الذين يرتضون التشويه ، واستخدام اليتامى ثم تشويههم بعد ذلك . وتجرى عملية التشويه دون رسوم معينة بل تجرى حيثما أمكن ؛ ويأخذ الداعى على الضحية دائماً عهداً وثيقاً بالكتمان . وظهر أيضاً أن الدعاة يجتمعون تحت جنح الظلام في مصلى خفي يقام فيه حاجز بين الرجال والنساء ، ويرتدى « المؤمنون » ثياباً بيضاء ويحملون الشموع المنيرة ، ويتلون صلوات من تأليف رسلهم ودعاتهم ، ويتمايلون أثناء الصلاة في حركات عنيفة تبلغ أحياناً درجة الهيام

* * *

وهكذا نرى أن هذه الطائفة السرية التي قامت منذ القرن السابع عشر على مبادىء وثنية ، وأساطير روحية سخيفة ، والتي تتوسل إلى تحقيق مثلها بأشنع الأساليب البربرية ، لاتزال تقوم إلى اليوم في قلب أوربا ، وفي قلب روسيا السوفيتية التي يغمرها جو من الالحاد والانكار لم تعرفه من قبل أمة من الأمم . على أن قيام هذه الطائفة الهمجية في قلب روسيا بالذات أمر يمكن فهمه وتفسيره ، ففي قفار روسيا النائية توجد مجتمعات من الفلاحين يسحقها الجهل والفقر ، وتنحدر في سذاجتها إلى مستوى يدنو من الهمجية ، وفي هذه المجتمعات الساذجة المتأخرة تفشو الخرافات والأساطير الدينية بصور مروعة تذكرنا بأساطير الوثنية الأولى ؛ وفيها بالذات استطاع الدعاة أن يحشدوا ضحاياهم . بيد أننا قد رأينا أن دعوة المجبوبين قد وصلت في العصر الأخير إلى طبقة المثقفين والنبلاء . وأعجب من ذلك أن تقوم مثل هذه الطائفة إلى اليوم تبشر بمبادئها ورسومها الهمجية . ولكن روسيا بلد العجائب ؛ ومن الصعب أن نتصورها قطعة من أوربا المتمدنة ، وقد كانت وما تزال اليوم مسرحاً لأغرب الدعوات والمذاهب والأساطير

« فينا في أوائل اكتوبر » محمد عبد الله عنان

التشريع والقضاء في العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ١ —

قبل أن نتكلم عن تاريخ القضاء في مصر، ينبغي ان نمهد بكلمة عامة تتناول حالة المصريين في عصورهم الأولى قبل أن تنشأ فكرة القانون بينهم وقبل أن يخضع نظامهم لقواعد معينة مرتكزة على قوة الدولة تحدد سلوكهم وتنظم ما بينهم وبين غيرهم من علاقات

تدل الآثار المصرية على أن النوع الانساني قطن مصر منذ أزمان عهيدة، وأثبت أكثر الباحثين في تاريخ الأجناس البشرية أن هذا النوع الانساني عند ما استوطن وادي النيل أخذ في استثمار أرضه، فظهرت الأسرة تبعاً لثبات العيشة واستقرارها وأصبحت النواة الاجتماعية الأولى للمجتمع المصري. وكانت الأم في الزمن الغابر هي قطب دائرة الأسرة إذ لم يعرف الطفل إلا والدته؛ ثم ظهر الأب وأصبح له السلطة العليا عليها تخضع له جميع أفراد أسرته من زوج وولد ونزيل ورقيق

قامت إذن الحياة الاجتماعية الأولى عند قدماء المصريين كما قامت عند غيرهم من الأمم القديمة على جماعة الأسرة؛ ذلك بأن الانسان مدني بطبعه ليس في قدرته أن يظل منعزلاً عمن حوله، فهو محتاج دائماً إلى مساعدة غيره له في كل أطوار حياته

فالأسرة إذن هي أول خلية اجتماعية وجدت في الجنس البشري؛ وهذه الوحدة الاجتماعية الأولى اشتملت على جمع من الأفراد ربطتهم عاطفة القرابة وجمعتهم صلة الدم، وكانوا يخضعون خضوعاً تاماً في أموالهم وأرواحهم لرجل فيهم هو أب الأسرة أو جدها؛ فكان هذا الرئيس هو الذي يوفي بعهودها ويطالب بحقوقها ويقضي بين أفرادها، وكانت كلمته فيهم بمثابة فرض يطيعه أفراد أسرته ولو كان ظالماً؛ وكان أفراد الأسرة متضامنين يحافظون على أموال أسرتهم وحقوقها ويحمون أفرادها ويتحملون أعمال كل فرد فيها، فعلى كل منهم تقع مسئولية أخيه ونتيجة جرمه، لأنهم متضامنون في الشر والخير معاً، فلكل منهم أن يطالب بحق أخيه، وعلى كل منهم أن يأخذ بثأر أخيه

ثم اتسعت دائرة الأسرة على مر الأيام تبعاً لازدياد النسل حتى أصبحت عشيرة تتكون من عدة أسر ترجع إلى أصل واحد وتدين بعقيدة دينية واحدة؛ ثم اتسعت دائرة العشيرة فتحولت إلى قبيلة تتكون من مجموعة من العشائر تضم جمعاً من الأفراد تربطهم رابطة القرابة أو المصاهرة أو المصادقة أو الضرورة للتعاون على اتقاء الأخطار؛ ثم توطنت القبيلة في الاقليم، وكانت مصر مكونة من عدة أقاليم كثيراً ما كانت تتحارب، فيتغلب إقليم على آخر ويضمه إليه. وقد أدت هذه الحروب إلى تكوين مملكتين عظيمتين إحداها في الشمال والأخرى في الجنوب، إلى أن وحدهما «مينا» أو «ميناوس» أو «مصرايم» أول ملوك مصر بجعلهما مملكة واحدة تخضع لسلطانه سنة ٣٤٠٠ ق. م فكان بذلك أول مؤسس لأسر الفراعنة. لذا قال «أرسطو» في الكتاب الأول من السياسة: إن الأسرة هي مصدر الدولة وأساسها الذي تقوم عليه

وإذ اتضح لنا أن الأسرة هي أول جماعة فطرية وجب علينا أن نبين كيف كانت تلك الخلية الأولى من الوجهة القانونية وعلى أي قاعدة حددت صلاتها وعلاقاتها بين أفرادها من جهة، وبين الجماعات الأخرى من جهة ثانية

كانت سلطة رب الأسرة أو رئيس العشيرة أو شيخ القبيلة مطلقة، يقضي بين أفرادها بما يشاء لا ينازعه في قضائه منازع؛ وتمتد سلطته إلى أموالهم امتدادها إلى أرواحهم. وكان يدير شئونها الداخلية ويتولى أمورها الخارجية أمام الجماعات الأخرى وفقاً للتقاليد والعادات، فكانت كلمته قانون الأسرة بين أفرادها كما كانت القوة هي القانون الذي يحكم صلاتها مع الجماعات الأخرى؛ فهي التي كانت تفض كل نزاع مهما كان نوعه، سواء أكان هذا النزاع مدنياً أم جنائياً، فمن كتب له النصر وتمت له الغلبة كان الحق والعدل في جانبه. فكانت القوة تحمي الحق بل كانت تخلقه وتوجده؛ فمن كان قوياً استطاع أن يحصل على كل حقه، ومن كان ضعيفاً

فات عليه من حقه على نسبة ضعفه ؛ وكان الانتقام الفردى هو طريق عقاب الجانى أو الجناة ، وكان للمجنى عليه أو لأى فرد فى أسرته أن يقضى رغبة الانتقام التي تجول فى صدره فيختار من طرق العقاب مايزيل به حقده على كل مرتكب للجريمة . وقد يقوم أفراد أسرة المجنى عليـه بمهاجمة أفراد أسرة الجانى لتضامنهم فى الأخذ بالثأر ، ولاعتقادهم بأن جرم الدم لايمحوه إلا الدم إذ لم يكن هناك من قوانين وقواعد تنظم استعمال ذلك الحق كما لم يكن هناك من سلطات عليا تحدد العقوبة وتشرف على تنفيذها

كان الأخذ بالثأر إذن حقاً وواجباً معاً ؛ وكثيراً ما كان عبئاً ثقيلاً يقع على أفراد أسرة الجانى فتختار أهون الشرين وذلك بتسليم الجانى إلى أصحاب الدم ، وبذلك تتخلى عن المعتدى إما خوفاً من الهزيمة وإما اجتناباً للحرب ورغبة فى حقن الدماء . وقد تكتفى أسرة المجنى عليه إذا وجدت نفسها أمام خصم قوى بالصلح تلقاء تعويض أو فدية تؤخذ من الجانى حتى تنفض النظر عن طلب الثأر ، وبذلك نشأت فكرة شراء الجريمة بالمال ، وسمى ذلك بالدية أو بدل الصلح على الجريمة ؛ فكان القاتل ينجو من العقاب إذا أفلح في الصلح مع أهل القتيل . ولم يكن المال الواجب دفعه ثمناً للصلح متساوياً فى جميع الجرائم المتعددة من حيث الجسامة ، بل اختلف كثرة وقلة بحسب مركز الجانى والمجنى عليه معاً رفعة وضعة وبحسب مركز أسرتيهما وبحسب الاهانة التى لحقت الأسرة المتـعدى عليها . بسبب الجريمة قامت العدالة إذن وتأسست على المصلحة المـادية المؤيدة بالقوة والمعززة بها ؛ وشاع نظام المبارزة الذى هو التجاء صريح إلى حكم القوة لفض نزاع مدنى أو جنائى ، فـكان المنتصر هو صاحب الحق ؛ وأصبحت المبارزة وسيلة قضائية أخرى لفض النزاع بين المتخاصمين

ثم خطا المجتمع المصرى القديم خطوة أخرى إلى الأمام تبعد بعض الشئ عن حالة الوحشية السـابقة ، فركن إلى مهارة الخصمين لفض النزاع ، فشرع مثلاً مساجلات غنائيـة بين الخصمين يكون المنتصر فيها صاحب الحق ، أو ترك ذلك إلى المصادفة كإلقاء الخصمين مكتوفى اليدين أو الرجلين أو هما معاً فى الماء ، ومن أشرف منهما على الغرق كان هو مقترف الذنب ؛ أو يكوى به اللسان أو أى عضو آخر فى الجسم بحديد محمى ، ومن يمتنع منهما كان امتناعه دليلاً على أنه المذنب ، إلى غير ذلك . وكانوا يلجأون إلى هذه الوسائل وأشباهها فى تعرف الحق لاعتقادهم أن الله لا يخذل صاحب الحق أبداً

ثم تدرجوا فى الرقى فاختاروا « وسيطا » يفصل فى النزاع بحكمته بينهم ، وانتهى التدرج إلى قبولهم « حكما » يفصل فى منازعاتهم ، فحل « الحكم » محل « الوسيط » وبذلك أقبل الناس إلى شيوخ العشائر وإلى رؤسائها وإلى رئيس القبيلة وإلى كل شخص عرف بأصالة الرأى وصحة الحكم ليفصلوا فيما شجر بينهم من نزاع ، فكان قضاء مضطرباً غير ثابت لأنه لم يصدر عن قانون مسنون يحده بقواعده ، ولا يستند إلى سلطة عليا تتولاه وتؤيد أحكامه ولو بالقوة عند الاقتضاء ، لأنهم كانوا غير ملزمين بالالتجاء إلى هذا « الحكم » ولا مجبرين على اتباع قراراته ، بل لم يكن هو نفسه مجبراً على الفصل بين من يحتكمون إليه ؛ وكانت القوة هي الملاذ الأخير يلجأ إليه من لم يرض بنتيجة التحكيم لفض النزاع . ثم خطت الأمة المصرية بعد ذلك خطوات سريعة إلى الرقى إذ أحلت النظام القضائى محل الطرق السابقة وحتمت الالتجاء إلى المحاكم لتفصل فى النزاع وفق قانون معين مسنون

نشوء فكرة القانون عند قدماء المصريين

لما كان الانسان محتاجاً إلى زاجر يزجره أو رادع يردعه فقد أحس منذ القدم وجوب وضع القواعد والقوانين التى تحدد له مدى سلوكه ونشاطه وتحفظ له حقوقه وتقى الناس اعتداءه ؛ لهذا وجب أن نتكلم عن المظاهر الأولى التى برزت فيها فكرة القانون فى المجتمع المصرى القـديم وكيف استقل وتباعد عن المصلحة المادية المعززة بالقوة

لما نشأت المدينة كوحدة سياسية وتـكونت من جماعات هذبتها العقائد الدينية وثنية كانت أم سماوية ، وخضعت تلك الجماعات لسلطة رئيس الإقليم أميراً كان أو ملكا ، نشأت عندئذ فكرة القانون مستقلة عن القوة

كان قدماء المصريين يعتقدون أن المعبودة « ما » أو « معت » هى إلـه العدل والحق ؛ لذا وضعوا على تاجها ريشة نعامة ، وكانت تدل عندهم على العدل . وكانوا يقولون إن « توت » أو « طهت »

أو « تحوت » المعروف عند اليونان باسم « هرمس » نزل إلى الأرض ووضع لسكان وادى النيل القدماء القواعد الأساسية للقوانين المدنية والجنائية فاعتبروه رب القوانين وإلـه كل المعارف ؛ وكانوا يقولون عنه إنه أول مشرع مصرى يحتذى وينسج على منواله . ويزعمون أنه ترك كتباً قيمة فى التشريع وفى نظم القضاء ، ولـكننا لم نهتد إلى شيء من تلك الـكتب . وكانوا يعتقدون أن للعدالة إلـهاً يوحى بالحكم لمن يرفع إليه النزاع من الـكهنة أو السحرة . وكان من نتيجة اعتقادهم أن قوانينهم منزلة عليهم من السماء وأنها صادرة بوحى الآلهة ومشورتهم أن صبغ القضاء عندهم بالصبغة الدينية التى أكسبته الاجلال والوقار . ثم تكونت بمضى الزمن وتكرر الحوادث والمنازعات المماثلة أو المتشابهة وصدور أحكام مصدرها الالهام – عادات مرجعها الالهام ليس لها صفة إلزامية ، وإنمـا تستمد قوتها من صفتها الدينية ومصدرها الالـهى المنسوبة إليه ؛ ثم تولى القضاء حفظ هذه العادات والتقاليد القانونية ومفسريها من زعماء الـكهنة أو الأشراف (إما لضعف السلطة الملـكية وإما لاتساع المملـكة وعجز الملك عن القيام بالقضاء بين أفرادها) واحتكروا معرفتها وساعدهم على الاستئثار بمعرفة هذه القوانين جهل العامة من المصريين ، فأصبحوا يفسرونها بحسب ما تمليه عليهم شهواتهم ويطبقونها بحسب ما يكون فيه منافعهم ويؤولونها بمـا يؤيد استمرار سلطتهم واتساع نفوذهم ؛ ويسمى هـذا العصر بعصر التقاليد غير المدونة . ولما كثر ظلمهم لعامة الشعب المصرى وظهر للشعب سوء نيتهم قلبوا لهم ظهر المجن وطالبوا بتدوين هذه العادات وتلك التقاليد فى نصوص تنشر على الناس جميعاً حتى يعرف كل شخص فى الأمة حقوقه وواجباته ؛ وبذلك بدأت مرحلة تدوين القانون . وقد جمعت تلك القواعد العرفية فى نصوص كتبت فى ألواح من الفخار أو الخشب أو البرنز وباشرت الحـكومة إصدارها ونشرها فى الناس

ولقد كانت القوانين المصرية فى دورها الأول ذات صبغة دينية ، وكانت تميل إلى الانصاف والعدل كما كانت مشربة بمكارم الأخلاق فأصبحت بذلك قريبة إلى المثل الأعلى للحق ؛ ثم تشبعت بعد ذلك بالمسحة المدنية وبخاصة عند ما ضعف نفوذ الـكهنة بمصر

ويرجع ظهور التشريع بمصر إلى القرن الخمسين ق . م إذ فى هذا القرن تعلم المصريون الـكتابة عند ما وضع لهم « تحوت » إلـه القانون ما وضع من قوانين ثم جمعها لهم سنة ٤٢٤١ ق . م وعلى مر السنين بعثرت تلك القوانين فجاء الملك « بوخوريس » مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين (٧١٨—٧١٢ ق . م) وجمعها ثم عدلها ووضعها فى مجموعة واحدة نظم بها المعاملات المدنية والأحوال الشخصية وبذلك سميت بمجموعة بوخوريس عنـد المصريين وبقانون العقود عند الاغريق فيما بعد ذلك

وقد عمل فى مصر بمجموعة قوانين بوخوريس هذه بعد أن امتدت إليها يد التنقيح أكثر من مرة فى العهد الفرعونى وطبقت على المصريين أيام حكم الاغريق والرومان لمصر حتى سنة ٢١٢م حيث أصدر الإمبراطور الرومانى كراكلا (٢١١—٢١٧م) قانوناً منح به الرعوية الرومانية لسكان الأمبراطورية الرومانية وكانت مصر جزءاً منها، وبذلك طبقت فى مصر القوانين الرومانية

« يتبع » عطية مصطفى مشرفة

بكالوريوس فى الآداب فى التاريخ
ودرجة ليسانس فى الحقوق

الاجتهاد لا يزكو مع الفوضى

للأستاذ علي الزين

— ١ —

لقد اتفق لي منذ سنين خلت أن ضمني مجلس في إحدى القرى مع بعض العلماء المجتهدين — بعرف أنفسهم — وكان فيمن حضر هذا المجلس ضابط فلسطيني من إخواننا أهل السنة . وما إن استقر المقام بالجميع حتى تنحنح فضيلة العالم وانطلق يتحدى في كلامه مواضع الخلاف بين أهل السنة والشيعة بكل ما في نبراته من اعتداد بأحقية الشيعة ، وبكل ما في قلبه من حرص على توجيه الأنظار نحوه ، وبكل ما في لهجته من عنجهية ونبو عما تقتضيه اللياقة من الاحتفاء بالضيف الفلسطيني ومراعاة عواطفه كمسلم سني أو كرجل قانون لا رجل دين يحسن الجدل ويستسيغه في مثل هذه الموضوعات : وكان بيت القصيد في حديث مولانا الاجتهاد وخطره — من حيث الإباحة والحظر ، وأثر ذلك إيجاباً وسلباً في الدين والعلم والعقل أيضاً ، ثم كيف أن الشيعة — دون غيرهم من الفرق الاسلامية — استقلوا بهذا الفضل وفاقاً للأحاديث النبوية ، وطبقاً للمأثور من أقوال العلماء والحكماء والمؤرخين ، وما إلى ذلك من شواهد على فضل الاجتهاد وفوائده . كل ذلك جرى والضابط الفلسطيني واجم تحاشياً لهذا المجتمع الشيعي وتهيباً من هذا العالم الأرستقراطي الذي لم يترك مجالا لغيره في الكلام ، أو جهلاً بالموضوع ، أو استخفافاً بالتحدث عنه لغير مناسبة لا أدري ؛ غير أن هذا الحديث أثار حفيظتي من العالم لا لشيء سوى أن يتملق العامة بالانتصار لمذهبهم أمام رجل سني ، كما استفز عواطفي هذا الوجوم من رجل غريب بروحه وميوله عن المجلس قد فوجيء بما لم يكن يترقبه ويألفه من حديث ، فاندفعت للاعتراض بما أوحته إلى هذه الحال من خواطر وأفكار يمكن أن يفترضها ويقدرها الشيعي وغير الشيعي من المسلمين إذا اضطره الأمر إلى أن يتجرد من عصبيته ، وأهاب به المقام للتمسك بكل ما يمكن أن يقال في تحرير موضع النزاع . ولكن مكان مثل هذا العالم في مثل هذا المجلس من العامة لم يدع سبيلاً إلى إتمام كلامي وتوضيح مرادي ، بل اضطرني كما اضطر غيري إلى السكوت والإصغاء لو كان في الامكان أن يسكت الفكر العنيد ، أو يرتاح الضمير الحر بدون أن يفضي بمكنونه ويفرغ سورته في قالب من اللفظ وسمط من البيان، فرحت أرفه عن النفس بعد الانصراف عن هذا المجلس بتسجيل تلك الخواطر وكتابة هذا المقال ؛ بيد أنه لم يكن لي من الشجاعة الأدبية أو من الاعتداد بما كنت أكتبه آنشذ ما يجرئني على النشر ، فطويت المقال فيما طويت من الأبحاث وجعلت مع الأيام أرقب المناسبات والفرص التي تهيء لي نشره إلى أن قامت الرسالة الغراء تعالج هذا الموضوع — موضوع الاجتهاد — وتشجيع الأقلام على تمحيصه بحثاً وتفكيراً ، فحولت وجهي نحوها معتداً بإنصاف الأستاذ الكبير — صاحب الرسالة — وعطفه على مثل هذه الموضوعات التي تتوالى على صفحات مجلته ، وإن كنت قد خالفت أولئك الباحثين في لهجتي ومنحاي ، اعتقاداً مني بأن المجاملة والمداورة والتملق في مثل هذا المقام لا تسمن ولا تغني ، بل هي إلى إغراء المتعنتين بتعنتهم وجمودهم أقرب منها إلى تأييد المخلصين والأخذ بيدهم إلى مكامن الداء ومواضع العلة ، وهي كذلك إلى التلبيس والإبهام أقرب منها إلى الصراحة والجهر بالحق الذي يجب أن يقال في محاربة العرف الزائف ومعالجة الأهواء المريضة ، وتقويم الأفكار المستبدة ، من حيث لا يغني التردد والخوف عن الثقة بالنفس والإقدام بالقول والعمل شيئاً

— ٢ —

لا جرم أنه كان في إقفال باب الاجتهاد بعض التقييد للحرية والاستقلال في الرأي ، وبعض الحجر على العقل والفكر والمنطق أن تجري مجراها الطبيعي الذي أعدته الشريعة السمحاء وهيأته طبيعة الحياة الحرة : ولا جرم أنه كان في فتحه على مصراعيه تعزيز للعلم وتحرير للفكر والمنطق ، وتنزيه للاسلام — دين الفطرة — عن الجمود والضيق لو قد انتهى بنا الأمر إلى ما كان يجب من الانطلاق مع نتائج التحرير العلمي والفكري ، وجعل الدين — بذلك — مآلا للمحجة وغاية للاتحاد وتفسيراً للحياة من سائر الوجوه والنواحي تفسيراً يقره منطق الحياة الحكيم ، وتكبره الفطرة الانسانية الحرة

أما والنتيجة ليست — بجميع ذيولها — كما يظن ويفترض لا أحسب أنه كان فى فتح باب الاجتهاد على هذا النحو من الاضطراب والفوضى التى نجدها عند علمائنا اليوم — خدمة للعقل والدين أكثر مما كان فى سده وإقفاله عند غيرهم

... فها نحن أولاء معشر الشيعة الإمامية ممن استمروا على القول بالاجتهاد وخطوا على ضوئه خطوات واسعة فى العلوم الدينية والإسلامية وتأنقوا ماشاء لهم التأنق فى علوم الكلام، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وإنهم لتأنقهم وتوسعهم فى هذا الأخير قد أحالوه إلى مزيج من الفلسفة والنظريات الغريبة وأوشكوا أن يخرجوا ببعض مباحثه عن حدود المعتقدات الشيعية كما هو الشأن فى بحث (اتحاد الطلب والإرادة) على ما قرره صاحب الكفاية — ها نحن أولاء قد استحال عندنا الاجتهاد أو كاد أن يستحيل — بتشعب أفكار الباحثين وتعسفهم فى التفكير والتخييل وتسامحهم فى النتائج إلى نوع من الافتراضات والوساوس والشكوك، يستطيع معها ضعاف الوجدان والعقيدة من ذوى الأهواء والمآرب الشخصية أن يستنبطوا لكل مأرب حكما، وأن يخلقوا لكل عسف عذراً، وأن يمهدوا لكل شذوذ فى القول والعمل قياساً وشكلا، يدرأ عنهم التهم، ويحتفظ لهم بثقة الجمهور، ويشحذ لهم من منطق الدين شركا للصيد وسلاحاً للنقمة، من حيث لايستطيع — مع هذه الوساوس والشكوك — من يحتاط لدينه ووجدانه أن يجزم بحكم من الأحكام الفرعية إلا فيما شذ وندر من الأحكام التى لاتتسع للتأويل والافتراض والجدل

ذلك إذا كان الذين يتخصصون بتلكم العلوم الدينية من ذوى الكفايات والمواهب السامية، فكيف بنا إذا كانوا من البله والحمق الذين من شأنهم أن يكونوا عرضة للتلبيس ومظنة للأوهام وأرجوحة للأهواء السياسية والنبهات العصبية، أو الذين لا يتعلمون هذه العلوم فى الغالب إلا احتفاظاً بتقاليد آبائهم وإلا ذريعة للرزق والاكتساب؟

أفترى أن الأمة أو أن الدين — بمثل ذلك — يمكن أن ينتهى إلى غاية أو يستقر على رأى؟ أم هل يمكن مع هذه الحال أن تكون النتيجة إلى غير ما نحن عليه اليوم من فوضى الاجتهاد وإطلاق العنان لكل طامح ولكل معتوه يسول له غروره وجشعه أن يستغل هذا الاسم ويدنس روحانيته بما يوسوسه له الهوى وحب الذات من فتاوى وأحكام وبدع يرسلها إرسال المسلمات، ويصرفها تصريف المطمئن إلى صوابه، وكفايته، وإخلاصه؟ أم هل يمكن أن تؤول بنا الحال إلى غير مامنينا به فى جيل عامل من تنابذ العلماء وتجريح بعضهم بعضا ومحاولة كل منهم أن يذهب إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر فى تحريمه وتحليله وتقريبه وتبعيده؟

أم هل لنا مع كل هذا — ومع تيقننا من أن الدين الإسلامى إنما وجد لخير الإنسان وصالحه وتوجيهه نحو المثل العليا التى توحد بين أفراده وشعوبه وتجعلهم إخواناً فى السراء والضراء — أن نقول إن فتح باب الاجتهاد عندنا كان أجدى على الدين من سده واقفاله عند اخواننا السنية؟ هيهات هيهات! ولو أن الذين أوصدوا باب الاجتهاد لم يتأثروا بعوامل زمنية واعتبارات سياسية بأن انقطعوا فيما وقفوا عنده واختاروه من المذاهب، لما كان أكثر انطباقاً على جوهر الكتاب والسنة وأقرب ملاءمة لمنطق الحياة الاجتماعية والعقلية، وأشد اتساقاً مع دواعى الاحتياط والحزم واختلاف الأيام والظروف، وتطور الحاجات ... لكان إقفاله على ذلك النحو من الإحكام والاعتدال — فى تلك الأيام العصيبة والظروف الحرجة — أجدى على الإسلام من فتحه على هذا الشكل من الفوضى والتسامح والاسترسال مع كل شذوذ وتعسف وادعاء شخصى، وأضمن لمنعته واتحاد كلمته، واتساق سلطانه

هذا وإن الأمر الذى ما انفك يقلق بال كل أريب ويريب خاطر كل مفكر — وللاجتهاد حكمته البالغة ومزيته العظمى فى ترويض الأصول العلمية وتصريف الأحكام على ما توجبه ضرورات الحياة ويقتضيه تطور أحوالها واختلاف دواعيها وجعل الدين (بذلك) يتسع لأبعد مدى فى تطورها وتقدمها — نحولنا نحن الشيعة حملة لواء الاجتهاد وتخلفنا فى ميادين الحياة على اختلاف أنواعها وفروعها، دون بقية الفرق الإسلامية التى حلئت عن نعمة الاجتهاد ولم ترزق مرونة منطقه ورحابة صدره تخلفاً لم ينفع معه استقلال إيران الشيعية فى السلطان ونزولها على آراء المجتهدين وامتثالها لإرادتهم فى كل شأن من شؤونها وفى كل طور من أطوارها، طول هذه الحقبة الغابرة من الدهر

ثم جمود أكثر أولئك المجتهدين منا وتحرجهم تحرجاً يغرى الناس بالجمود والتقليد، ويميت فيهم حياة العزة والطموح، كأنما

أوتوا منطق الاجتهاد ليحاربوا كل جديد فى الحياة ، ويطاردوا كل مصلح ، ويفرضوا على الناس حياة الاتكال الراتبة ، وعيش الاعتزال المبتور ، أو ليختصروا هذه الشريعة الكونية ويضيقوا هذه السهلة السمحاء ، ولا يوجهوا كبير عنايتهم وجهودهم لغير هذه الفوارق والتقاليد المذهبية التى أوشكت أن تكون — بحكم ذلك الخلاف والتعصب الاسلامي العام — بمنزلة الأصل للكتاب والسنة ، يؤول ما التبس منهما واختلف على حسب المألوف والمعتبر من ذلك لدى كل فرقة من فرق الإسلام

— ٣ —

ثم ما الاجتهاد إن لم يكن فى جملته ومآله عبارة عن استقلال الفقيه فى تفسير الكتاب والسنة ، واستنباط الأحكام الشرعية من ذلك لكل واقعة من وقائع الحياة قديمها وحديثها على حسب المنطوق والمفهوم ، وعلى مقتضى العموم والخصوص ، والاطلاق والتقييد ، وما إلى ذلك مما توضحه القرائن ويقره الذوق والمنطق(١) ؟

وهو بهذا المعنى محدود النطاق ليس لعقل المجتهد باصطلاحنا ولا لخياله أن يتجاوز به ماوراء الجمل والألفاظ فى الكتاب والسنة ، فإنه على فرض أن تنص القرائن الحالية والمقالية — وفرض المحال ليس بمحال — على معنى من معانى الكتاب والسنة لا يساعد على استخراج الحكم الذى يقتنع به العقل ويستسيغه الذوق ويتفق مع ماجريات الحياة ، لايستطيع المجتهد أن يتجاوز النص فى حكمه ويراعى مقتضى العقل المجرد ، والذوق السليم ، لنتحلل من إطلاق القول « أنه كان فى سد باب الاجتهاد حجراً عاماً على العقل »

ثم ما يدرينا فى أن يكون همّ من أوصدوا هذا الباب آن ذلك بعد أن انضجت عندهم أكثر أحكام الفقه وقضاياه واطمأنوا إلى تحرير نصوصه وأدلته :

أولاً — الاحتياط من أن تتعدد المذاهب الاسلامية إلى غير نهاية وأن يكثر الخلاف ويستحكم حتى تتفرق الكلمة ويتمكن الدخلاء والدساسون من الكيد للاسلام ، فتنحل قواه ، وتلتبس حكمته ، ويضطرب قصده ، وتنعكس الآية «إنما المؤمنون إخوة»

ثانياً — تحرير الفكر وتوجيهه إلى باقى النواحى العلمية والفكرية التى استقبلها الاسلام فى أوج نهضته وازدهار مدنيته وحضارته — باعتقاد أن مجاهل الحياة المتشعبة وحاجات الانسان المتعددة المتنوعة أبعد مدًى وأوسع نطاقاً من أن تنحصر أو تتضح أو تحد بما ينطوى عليه الفقه والأصول من أحكام وقواعد ليقتصر البحث عليها كما كانت الحال إذ ذاك

هذا وإذا كان الاجتهاد فى الفقه لا يعدو فى جملته ومآله أن يكون من قبيل الاجتهاد في تفسير الجمل والمفردات اللغوية والتمييز بين الحقيقى وبين المجاز ، والمنقول ، والمشترك منها ، بعد البحث عن تاريخ نشأتها ، وعما كان يلابسها آن ذلك من قرائن حالية ومقالية وما كان يتصل بها ويكتنفها من عوامل الاجتماع والسياسة ومن خصائص الزمان والمكان ، ثم عما رافق تطورها وتنقلها فى الأيام ، والجماعات ، والأشخاص ، من تحوير وتغيير . وكما أنهم هنا قد اختلفوا بين القول بإباحة التفسير بالرأى وبين القول بعدمه ، وترددوا بين القول بجواز الاشتقاق والتصريف ، والوضع للمستحدثات من المعانى وبين القول بعدمه . ثم انتهى بهم الخلاف والتردد إلى عدم الاطمئنان للفرد مهما كان شأنه ، وإلى الاتفاق على تأليف مجمع من العلماء الاختصاصيين يوكل إلى مجموعه التصرف فيما يتفقون عليه من رأى

فلماذا لايكون واقع الأمر هناك — فى الفقه — كذلك ؟ ولماذا لاننتهي بعد هذا النزاع الطويل العريض الذى أحكمه ووسمه استئثار الفرد وتمادى الفوضى إلى ما قد انتهى إليه علماء اللغة من تأليف مجمع من علماء الدين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ثم إنشاء (مجلة) لتحرير البحث فى مواضع النزاع بينهم وتعميم مايقرره منطق العلم والدين ، والحياة الحرة ، ويفرضه التجرد لمحض الحق والخير ؟

وعلى فرض أن تصطدم هذه الوسائل — فى أول الأمر — بما قد فطر عليه الجمهور من جمود فى الطبع ، واحترام للشائع من أوضاع وتقاليد ، والتمسك بالمألوف من عرف ورواية ، أو أن تحدث هذه الابحاث رد فعل فى الأوساط الاسلامية كما هو الشأن فى كل فكرة جديدة — علمية كانت أو دينية — لاتنسجم

(١) وهنا أستميح العذر من سادتى الأصوليين إذا تجوزت فى تعريف الاجتهاد ولم ألتزم بنص عبارتهم أو أراعى المعنى اللغوى — اعتقاداً منى — بأن بذل الوسع فى تحصيل الحكم إذا لم يخرج بصاحبه عن طور التقليد ويكون له رأياً خاصاً بالمسألة لايحقق له صفة الاجتهاد بالمعنى المراد

ثم اعتقاداً بأن بقية الأدلة التفصيلية هى فرع عن الكتاب والسنة خلقتها الحاجة إلى النص القطعى فى بعض الفروع والاعتبارات أو إلى تحديد مفاد النص ومداه سعة وضيقا ولذلك كانت مهملة مع وجوده ووضوحه لاشأن لها ولا أثر .

مع الشائع والمألوف من عادة وقول — إنه على فرض أن يكون ذلك كله فى أول الأمر ، فلا بدّ لهذه الوسائل فى النهاية من أن تقوى وتسلس لنتائجها الأفكار والعقول وتراض على مقرراتها الأذواق والنفوس من عامة المسلمين وخاصتهم ولا سيما إذا استمرت ممها عواطف المصلحين وحججهم الدامغة وتضافرت على تأييدها وتقريرها فى المجتمع الاسلامى الحياة فى تطورها والثقافة فى تقدمها ، وإلا فالاتكال على المصادفات أو ما يشبه الاتكال عليها — فى الإصلاح والتأليف — عجز وقنوط لا يقتنع به المصلح المعتد بصواب مبادئه ، وسداد خططه ، وسمو غايته ، ولا يليق بالأمم المتفائلة الطامحة

أجل ! ماذا يمنع حماة الدين وقادة الفكر فى العالم الاسلامى أن يؤلفوا لجنة دائمة أو لجاناً من العلماء الاختصاصيين الذين عرفوا بمرونة الرأى وسمو الفطرة وسلامة الذوق ، وهيأت لهم الظروف أن يضيفوا إلى ثقافتهم الدينية ثقافة اجتماعية عالية تشعرهم بواجبات الحياة وواجبات الدين ، وتمكنهم من التوفيق بين ما التبس أو تفاوت من نواميسهما — يوكل إلى هذه اللجنة تسوية الخلاف القائم بين المذاهب الاسلامية وتحرير النصوص والأدلة على ضوء العلم وسداد المنطق النزيه ، وتعديل الأحكام والنواميس وتقريرها على وجه تذوب فيه النعرات والفوارق ، ويستقيم القصد والغاية ، ويستمر العمل والسير على المنهج القويم اللاحب

وهل ذلك بعزيز على همم المخلصين من القادة إذ هم احترسوا فى أخذ النصوص والأدلة والأحكام ، مما جره عليها عادي الزمن وتصادم العصبيات وتزاحم المذاهب السياسية والدينية وتنازع الأهواء الشخصية والحزبية ، من تلبيس ، واختلاق ، وتصحيف وادغام

ثم راعوا فى تفسيرها وتوجيهها ، تجدد الحياة واتساع أفقها وتطور مقتضياتها ، وتشعب ضرورياتها وكمالياتها عما كانت عليه فى صدر الاسلام وعهد أئمته الأول

فانه لم يبق فى إمكان الفرد أن يقوم بمثل هذه المهام — مهام الاجتهاد — كما ينبغى ويجب حتى فى الطائفة الواحدة من طوائف المسلمين ، لأن الدين بالنظر لتوسع أبحاثه وتشعب فروعه ، ولأن الحياة بالنظر لتعقدها وتطورها المستمر ، قد أصبحا أكبر من أن يستقصى حقائقهما ويستكنه أسرارهما ويطابق بين داعيهما فرد مهما كان ، ليوكل إليه بمثل هذه المهام الشاقة ولأن الفرد مهما كانت عبقريته ومهما كانت جهوده لا يمكنه أن يكون منزهاً عن الخطأ معصوماً من الزيغ حرياً بأن يستقل بجهود أمة وتراث أجيال ، ويتصرف بمقدرات الأفكار والعواطف الدينية

— ٤ —

ولكن مثل هذا العمل الانسانى الخطير لا أحسبه يتم على وجهه الأكمل ويكون له أثره الفعال فى جميع الأوساط الاسلامية إذا لم تتحفز (النجف) ويهيب بها داعى النهضة إلى أن تجارى (الأزهر) وتتلافى هذه الفوضى السائدة فى مدارسها وفى كتبها الدراسية وفى أساتذتها وتلامذتها ، ثم فى الاجتهاد والتقليد أيضاً بالعمل على تنظيم تلك المدارس ومراقبة الأساتذة والتلامذة والكتب الدراسية فيها ، وإعداد اللجان الاختصاصية لتعديل برامج التعليم وتوسيع هذه البرامج ، ثم تحوير الكتب الدراسية أو تغييرها وترتيبها على حسب عقلية التلامذة وعلى حسب مراتبهم العلمية ، لتتضح بذلك السبل أمام الطالب وتقرب النتائج ويتوفر عليه من الوقت والنفقة ما يزيد فى نشاطه وطموحه إلى أن يتثقف ثقافة عالية تيسر له بعد الاختصاص بما يختص به من علوم الدين أن يتذوق الدين وأن يتذوق الحياة بدون مشقة ، وأن يتفهمها ويؤدى فرائضهما على الوجه الصحيح الأكمل لكي يتهيأ للنجف نفسها من وراء ذلك كله أن تتفاهم مع الأزهر ، وتجعل للاجتهاد — بالتعاون معه — المحل المرموق والأثر البالغ فى نفوس المسلمين وعقائدهم وآدابهم

ثم لكى يتسنى للمعهدين الخالدين ويروق لها على هدى الاجتهاد وبركة الائتلاف أن ينزلا عن بعض التقاليد ، وينظرا للدين وللحياة نظراً مجرداً يرتفع بالدين عن كل هذه الحواشى العفنة البالية ، ويسمو بالإنسانية عن كل هذه الفصول التى تثير الريب وتشعب الظنون ، وتوسع الخرق بين الأخوين ، نظراً حكيماً ملؤه الاخلاص والسمو ، يخطو بالإسلام والإنسانية خطوته الأبدية الكبرى إلى الأمام ، إلى الاتحاد ، إلى السعادة الأبدية والحياة الخالدة

وإلا فإذا دامت النجف على ما نعهدها من الأوضاع المدرسية فسافة الخلف بعيدة بين المعهدين بعد الفوضى عن النظام ، والبداوة عن الحضارة ، لا يمكن أن تغنى فيها الأقوال والمجاملات عن العمل والإخلاص شيئاً

(النبطية — جبل عامل) علي الزين

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٠ —

الرافعى شاعر الأناشيد

ولع الرافعى منذ نشأته فى الشعر بالأناشيد الوطنية والأغانى الشعبية ، يفتنّ فى نظمها ، ويبدع فى أوزانها وأساليبها ؛ فى سنة ١٩٠٣ أخرج فى الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التى يقول فى مطلعها :

بلادى هواها فى لسانى وفى دمي يمجّدها قلبى ويدعو لها فمى

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها فى دروس المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية . وجاء فى هامش ديوانه بعد تمام هـذه المقطوعات : « قد تمت القطع التى نظمت للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرق ، غير مبال بوعورة هـذا المسلك الذى لم يسلكه قبله أحـد . فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده فى هذا المشروع ، حتى لا يغيض ما بقى فى ذلك الينبوع ... [1] »

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغانى ، ينشر منها طرفة رائعة فى كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامي ، وغيرها ، وأذاع فى الصحف كثيراً مما نظم من « أغانى الشعب »

وإنك لترى الرافعى فى هذه الأغانى والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له فى سائر شعره ، فتؤمن غـير مضلل أن الرافعي هبة الزمان للعربية ليزيد فيها هـذا الفن الشعرى البديع الذى تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم فى الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزلْ ... » ثم لم يقل أحد من بعده شعراً يترنم به فى الحرب ، أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعى ...

ويقينى أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء فى العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعى ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية فى المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغرام بفلانة وفلانة من حبائبه الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد ...

* * *

ونهضت الأمة نهضتها الرائعة فى سنة ١٩١٩ ، ودوّي صوت الشعب هاتفاً : إلى المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس من داخلها ، فإذا الأمة صوت واحد ، على رأى واحد إلى هدف واحد ؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود في وجوده يتمثل فى كل مصرى ، ويستعلن على كل لسان فى مصر

واجتمع رأي طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر عن أمانيها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصرى ، تجتمع عندها خواطر نفسه ، وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ، وبيانها من معاني نفسه

وتلفّت النـاس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذي يؤملون أن تتحدث الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وأعلنت لجنة النشيد عن جائزة وضربت أجلا ...

وتبارى الشعراء في الافتنان والاجادة ، وتقدم كل شاعر ببضاعته ، وتقدم الرافعى فيمن تقدم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرها بين شعراء العصر لم يتقدما بشيء إلى لجنـة النشيد : هما شوقى أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل . أما حافظ فلأنه من المحكمين فى اختيار النشيد ، وأما شوقى ... من يدرى ؟

وكان على رأس لجنة النشيد الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفر ولى باشا ، فكأنما عز عليه أن ينتهى الأجل المضروب فيتقدم الرافعى ، ويتقدم الهراوى ، ويتقدم عبد الرحمن صدقى ،

(١) شرح الرافعى الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما ، نسب الشرح إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، ولعلّ هذا من الدعاية التي كان يدعوها لنفسه فى أول عهده بالشعر ؛ ومن هذا يرى القارىء حديث الرافعى عن نفسه فى هذه العبارة بضمير الغائب ، على أنها من قوله هو نفسه

ويتقدم غير هؤلاء ممن يقول الشعر ، وممن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوقي وحافظ

ونسأت اللجنة الأجل المضروب ، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوهما على الاشتراك في المباراة ؛ فأما حافظ فأصر وأبى ، وأما شوقي ... يرحمه الله ، لقد كان حريصاً على أن يقول الناس في كل مناسبة : لقد قال شوقي ... ولكن ماذا يقول ذلك اليوم ؟

وكان لشوقي نشيد ، أنشأه منذ عهد لتفتتح به (فرقة عكاشة) موسمها التمثيلي ؛ فماذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟

وتقدم شوقي إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بني مصر مكانكمو تهيَّا فهيا مهِّدوا للمجد هيَّا

وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدّت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا أن جاءهم الجواب الصريح ؛ فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصاً على أن يكون النشيد المختار من نظم شوقي ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة ، وهل كان لهم أن يطمئنوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل في القضية ؟

وكان الرافعي على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات في (الأخبار) ، وللأخبار يومئذ مذهبها السياسي وكاتبها الأول هو المرحوم أمين بك الرافعي ؛ فسحب الرافعي نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يملؤها ثورة صاخبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقي وأنصار شوقي ، وقال في نشيده ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازني والعقاد في (الديوان) ، وكتب غير المازني والعقاد ؛ وشوقي رحمه الله رجل كان على فضله ومكانته وعلى منزلته في الشعر ، ضيق الصدر بالنقد والناقدين ؛ فمن هذا كان بينه وبين الرافعي شيء من يومئذ ، إن لم يكن من قبل يوم نشر الرافعي مقاله في (الثريا) عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥ ؛ فما التقيا من بعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحداً من أدباء العربية لم ينصف شوقي بعد موته ولم يكتب عنه مثل ما كتب الرافعي عن شوقي في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفي أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين

* * *

ومضت لجنة المباراة في طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافعي في ثورته ؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ، لتنظر في نشيد الرافعي وحده

وأصدرت اللجنة الأصيلة حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقي ، وفاز من بعده الهراوي وعبد الرحمن صدقي ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعي هو النشيد القومي المصري ...

وسبّقت بين المغنين جائزة ، ليصنعوا لحناً لنشيد الرافعي :

إلى العلا ، إلى العلا ، بني الوطن إلى العلا ، كلُّ فتاةٍ وفتى

وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !

ليس من همي هنا أن أوازن بين نشيدي شوقي والرافعي ؛ فقد مات نشيد الرافعي (إلى العلا ...) بعد ما سبقه نشيد شوقي إلى الموت بعشر سنوات ، ولم تُجْدِ كل المحاولات في بعثه ونشره ... وإن كان لي أن أقول شيئاً هنا في الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعي واحتفائهم به في كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقي

لقد سمعت نشيد الرافعي أول ما سمعته في حفل رسمي أقيم لإذاعته بطنطا في سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أني رأيت نشيداً احتفل له الناس ما احتفلوا لنشيد الرافعي يومئذ ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيانُ أذيالَه ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه ، ولكننا نعيش في شعب أكبر فضائله أن ينسى ... وعند الله الجزاء ... !

* * *

اسلمي يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشراً في سعد زغلول ؛ فهو المصري الذي لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنساناً تراه العين لما وجدوا إلا صورته ، ولو سألوا : من الرجل الذي يقول أنا الأمةُ صادقاً غير محتال لما وجدوا غيره ...

وتطورت فكرة النشيد القومي عند الرافعي فرأى رؤياه في منامه ، فلما أصبح ألف نشيده « اسلمي يا مصر » وما كان هم الرافعي عند ما ألفه أن يجعله نشيداً قومياً ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد ، أو كما يقول الرافعي في خطابه إلى سعد في جبل طارق :

« وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر فى كل فرد من الأمة على قدر استعداده ، ويبقى اسمك الجليل مع كل مصري على الدهر ليكون مصدراً من مصادر إمداده

« ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم يتقربون به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لايستطيعون مثلنا تقبيل يديك ، ويعلمون فى كل زمن من شرح هـذا الاسم الكبير أنه الرجل الذى خط قلم الأزل كتاب نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبي الفكر والعزيمة ... »

قلت : إن الرافعى لم يكن يعنى بانشاء نشيده «اسلمى يامصر» أن يجعله نشيداً قومياً ، فإنه لطمأن إلى أن نشيده « إلى العلا.. » ماض في طريقه إلى هذا الهدف ؛ إنما كان يعنى أن يضع فى هذا النشيد صوتَ سعد كما تصورت حقيقتُـه فى نفسه ؛ لـكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البـلاد رأيها ؛ فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذه نشيداً قومياً لتجعل صوتَ سعد فى هـذا النشيد صوتَ البلاد ، ولتتخذ ما فيه من معانى المجد شعاراً لـكل مصرى ، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوت كل مصري

وتألفت اللجان فى مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته ورسم لحنه ؛ فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ، والموسيقار صفر على ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولـكن اللحن الثانى أذيع وأعم ، وبه تنشده فرق الـكشافة المصرية بعد إذ صار نشيدها الرسمى

النشيد القومي فى سنة ١٩٣٦

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد «اسلمى يامصر» هو نشيد مصر القومى من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحـكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومي يهتف به الشعب وتعترف به الحـكومة

فى هذه الفترة كان الرافعى على نية إنشاء نشيد وطنى جديد، إجابة لرغبة تقـدم بها إليه شبان الوفد ؛ فما أذاعت الحـكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد :

حماةَ الحمى ، ياحماة الحمى   هلمُّوا ، هلموا لمجـد الزمن
لقد صرخت فى العروق الدما   نموت ، نموت ، ويحيا الوطن

كما تقدم بنشيده الآخر : « اسلمي يا مصر » ؛ ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد الثانى ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض لرأى اللجنة وحكمها فى هذا النشيد الجديد ، فذلك باب من النقد الأدبى ليس من قصدى التعرض له فى هذا المقال ؛ فان للتاريخ الأدبى حكمه فى هذا الشأن ، يوم تُنسى الأحقاد وتمحى العداوات

***

ليس ما ذكرت هو جهد الرافعى فى الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذى لا أرى غيره من شعراء العربية جديراً به ؛ فما أستطيع أن أحصي كل ما أنشأ الرافعى فى هذا الباب ، وحسبي أن أذكر بنشيده الخالد الذى أنشأه فى سنة ١٩٢٧ ليكون شعار (الشبان المسلمين) ، فهنا ، في هذا النشيد ، يُعرف الرافعى الشاعر المسلم المجاهد الذي وقف قلمه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب

أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » ، و « نشيد الطلبة » الذى أنشأه ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا — فذلك فن من البيان له فصل بعنوانه فى تاريخ الأدب العربى

البحر المنفير

فى أناشيد الرافعي عامة ، تعرف له طابعا وروحاً ونغمة هى سرّ نجاحه فيما ألف من أناشيد ، ويميل فى أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة فى سبك اللفظ ولحن القول ؛ ولو أنك سمعته مرة وهو فى خلوته الشعرية يحاول شيئاً من هذه الأناشيد لسمعت لحناً له رنين يشترك فيه صوت الرافعى ، ونقر أصابعه على المكتب وخفق نعله على أرض المكان ؛ وعلى أن الرافعى كان أصم لا يسمع قصف المدافع ، فإنه كان لا يستوي له النظم إلا فى مثل هذه الحال . واسألوا صديقنا الأستاذ مصطفى درويش المحقق بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعى من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف فى القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الآنسة مارى قدسى معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعى يوم جلس إليها وهى تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ويوم جلست إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد « اسلمى يا مصر » وهو يسمعها بعينيــه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه، وينفخ شدقيه وفى أذنيه وقر ثقيل ... !

هذه النغمة التى كانت تتمثل للرافعى فى سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد ، كان لها أثرها الفني فى عمله ، وهى هى التي كانت تشعره أحياناً بالعجز عن أن يجد فى موازين الشعر العربى النغمة التى كان يريدها فى أناشيده .كطبل الحرب ؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

مَجْدًا مَجْدًا مَدْرَستى   مدرستى مَجْدًا مَجْدًا
عن علمى عن تربيتى   مدرستى مَجْداً حمــداً

لم يجد له نغمة تلائمه فيما يعرف من بحور الشعر ، فاخترع له هذا الميزان الذى يزنه به قارئه ، وسماه : « طبل الحرب » ولكن صاحب المقطم أشار عليه أن يسميه : « البحر المنفجر » وتفعيلاته « فَعْلُنْ ، فَعْلُنْ ، فُعو » مكررة فى كل شطر ، مع بعض علل فى الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته

* * *

هذا هو الرافعي شاعر الأناشيد ، وهذا جهده وما بلغ ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان من شعره سماه : « أغانى الشعب » جمع فيه ما أنشأ من الأناشيد الوطنية ، وأغانى الجماعات والطوائف لولا أن عاجلته المنية . فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربى كان يعيش فى هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية ، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب العربى والبيان الرفيع لايقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان ... !

ورحم الله جماعة تألفت منذ بضعة أشهر لتأبين الرافعى فى شهر أكتوبر ، وأوشك شهر أكتوبر أن ينتهي وما استطاعت الجماعة أن تثبت أن فيها حياة ... !

رحمك الله يا مصطفى ، وفى ذمة الله ما جاهدت لهـذه الأمة التى لا تعرف الجميل !

« شبرا » محمد سعيد العريان

الكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تمهيد

فى الأدب اجتهاد لم يغلق بابه كما أغلق فى الفقه وغيره من علومنا الشرعية ، وقد كان لامتياز الأدب بهذا على غيره من العلوم أثر كبير فى ازدهاره فى هذا العصر ، وفى وصوله إلى ما لم يصل إليه فى عصر من العصور السابقة ، وهو فى هذه النهضة المباركة شغل الطالب فى معهده ، والتلميذ فى مدرسته ، بل شغل الناس جميعاً على اختلاف أنواعهم ومذاهبهم . ولو أن غير الأدب من العلوم كان له حظه من فتح باب الاجتهاد لم يصر إلى هذا الجمود الذى صرف الناس عنه ، وجعلهم يكرهون النظر فيه ، ويخشون ما يصيبهم من العنت إذا خرجوا عن مألوفه

وللنفس حاجات فى هذا الاجتهاد المغلق تجعلها تحن إليه الفينة بعد الفينة ، فإذا خشيت العنت أو أصابها فيه شىء من العنت عدات عنه إلى غيره حباً فى المسالمة ، أو يأساً من حال الناس فى هذه الناحية ؛ ولا تجد مثل الأدب فى رحابة صدره للاجتهاد ، وعدم ضيق أهله بأثر الاجتهاد فيه ، فتلج بابه ، وتسلى عنها به ما يصيبها من أذى الناس وجحودهم لفضل المخلصين العاملين فيهم

وهأنذا الآن بصدد الكتابة عن الكميت بن زيد الأسدى ، وبصدد التنويه بالفتح الجديد الذى فتحه فى الأدب العربى بهاشمياته ، لأرفعه بها إلى درجة الزعامة على شعراء عصره « عصر بنى مروان » ولأبعد جريرا والفرزدق والأخطل عن هـذه الدرجة التى اتفق الناس على منحها لهم ، ولا علىّ من مخالفة الناس فيما ذهبوا إليه فى زعامة الشعراء فى هذا العصر ، فليس فى الأدب كفر ولا إلحاد ولا غيرهما مما يرمى به الباحثون جزافاً في هذه الأيام

ونحن إذا بحثنا فى هذه الزعامة الشعرية التى عرفها الناس لجرير والفرزدق والأخطل نجد أن ملوك بنى مروان هم الذين روجوا لهذه الزعامة ، وهم الذين شغلوا الناس بهؤلاء الشعراء

عن الكميت وغيره ممن يخالف سياستهم ، ويناوىء بشعره ملكهم ، ويناصره به غيرهم من منافسيهم ، وقد مضى عهد بنى مروان ومضت بعده عهود وعهود ، وكان لحب التقليد الذى منى به الاسلام والمسلمون أثره فى بقاء الناس على هذه الزعامة الشعرية

وإنما روج ملوك بنى مروان لجرير والفرزدق والأخطل لأنهم وجدوا فى شعرهم انحرافاً عن الجادة التى يجب أن يكون الشعر عليها ، ووجدوا فيه ما يخدم مآربهم فى حكم الأمة الإسلامية حكماً مطلقاً لايقيدهم فيه قانون سماوى أو وضعى ، وفى الاستئثار لأنفسهم وأنصارهم بأموال هذه الأمة وخيراتها ، يصرفونها فى اقتناء القيان ، وشراء الجوار الحسان ، وإشباع شهواتهم فى هذه الحياة ، والقضاء على روح المقاومة للظلم فى الأمة حتى تخضع لهم ، وتستكين لحكمهم ؛ ولا نستثنى منهم فى ذلك إلا الملك الصالح عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد سار فى حكمه القصير على خلاف سيرتهم ، وأشاح بوجهه عن أولئك الشعراء الذين كانوا يروجون لهم

ولم يكن مثل جرير والفرزدق والأخطل فى ذلك إلا كمثل من يعيش منا الآن بعقول القرون الماضية ، ولا يتأثر عقله بشىء من العصر الذي يعيش فيه ، فهكذا كان أولئك الشعراء يعيشون بعد الإسلام بعقول الشعراء الذين لم يدركوا عهده ، ولم تعمل فى نفوسهم رسالته ، ولم تؤثر فى قلوبهم هدايته ، ولم يهذبهم تقويمه وإصلاحه ، فاستعملوا شعرهم فى خدمة أغراضهم وقضاء مآربهم ، وتعلقوا به ملوك بنى مروان طمعاً فى أموالهم ودنياهم ، ولم ينظروا فيه إلى الأمة وما تطلبه من الشعر الذي يوقظها من غفلتها ، وينهض بها من كبوتها ، ويحارب عوامل الفناء التى تعمل عملها فيها ، بل ساعدوا خصومها عليها ، وعملوا بشعرهم على تفريق كلمتها ، والرجوع بها إلى حالة الجاهلية ، فكان شعراً رجعياً جامداً بغيضاً ، لاتسري فيه روح الحياة ، ولا يصح أن يكون صاحبه بهزعيما فى الشعراء

فإذا نظرت فى شعر الكميت بن زيد وجدته يمثل لك عصر بنى مروان تمثيلاً صادقاً ، لا أثر فيه للخداع والغش ، ولا يشوهه الحرص المقوت على الصلات والجوائز ، وخيل إليك أنك تعيش فى عصر بني مروان مع الذين عاشوا فيه ، وأن ظلمهم وإفسادهم حاق بك كما حاق بهم ، فأخذ قلبك يضطرب بالحقد عليهم ، وأخذت نفسك تضطرم بالثورة على ملكهم ، وتنشد ملكا آخر يسود فيه العدل ، وينتصر الحق على الباطل ، وتنهض به الأمة ، وينتظم لها أمر دينها ودنياها

فهو شعر حى ناهض يدعو إلى الحياة والنهوض ؛ أما شعر جرير والفرزدق والأخطل فهو شعر ميت جامد يدعو إلى الموت والجمود ، ولم يكن الخضوع لزعامة هذا الشعر إلا أثراً من آثار الروح الشيطانية المستولية على النفوس منذ فقد فى المسلمين الحكم الصالح ، وأخذوا يعيشون عيشة آئمة جاهلية ، يضيع فيها الحق ، وينتصر عليه الباطل ، وتنتشر فيها أعلام الشر ، وتطوى أعلام الخير ، فأظلمت العقول ، والتبست عليها الأمور ، فصارت ترى الباطل حقاً ، والشر خيراً ، والاثم طاعة وبراً ، وجمدت على هذا بطول الزمن حتى صارت حالها تدعو إلى اليأس فى إصلاحها ، وإزالة هذه الغشاوة عنها

على أنى فيما أراه من زعامة الكميت على شعراء عصره أذهب فى هذا مذهب بعض العلماء والشعراء كانوا يتعصبون له ويقدمونه فى الشعر على غيره من الشعراء جميعاً . قال أبو الفرج الأصبهانى : أخبرنى محمد بن القاسم الأنباري ، قال حدثنى أبى ، قال حدثنا الحسن بن عبد الرحمن الربعى ، قال حدثنا أحمد بن بكير الأسدى ، قال حدثنا أحمد بن أنس السلامي الأسدى ، قال سئل معاذ الهراء : من أشعر الناس ؟ قال : أمن الجاهليين أم من الإسلاميين ؟ قالوا : بل من الجاهليين ، قال : امرؤ القيس وزهير وعبيد بن الأبرص . قالوا : فمن الإسلاميين ؟ قال : الفرزدق وجرير والأخطل والراعى . قال فقيل له : يا أبا محمد ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت ؟ قال : ذاك أشعر الأولين والآخرين

وقال أبو الفرج أيضاً : أخبرنى الحسن بن على الخفاف ، قال حدثنا الحسن بن عليل العنزى ، قال حدثنى احمد بن بكير ، قال حدثنى محمد بن أنس الأسدى السلامى ، قال حدثنى محمد بن سهل راوية الكميت قال : جاء الكميت إلى الفرزدق لما قدم الكوفة فقال له : إنى قد قلت شيئاً فاسمعه منى يا أبا فراس ، قال: هاته ، فأنشده قوله :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أَطْرَبُ
ولا لعِباً منى وذو الشوق يلعبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والتُّقَى
وخير بني حوّاء والخير يُطْلَبُ

فقال له : قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك ، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا ما تركت أنت الطرب إليه

وفى رواية أخرى عن محمد بن على النوفلى ، قال سمعت أبي يقول : لما قال الكميت بن زيد الشعر كان أول ماقال الهاشميات فسترها ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له : يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى، قال له : صدقت ، أنت ابن أخى ، فما حاجتك ؟ قال : نفث على لسانى فقلت شعراً فأحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره ، وكنت أولى من ستره على . فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك ، فأنشدني ماقلت ، فأنشده :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أَطْرَبُ

قال فقال لى : فيم تطرب يا ابن أخى ؟ فقال :

ولا لعباً منى وذو الشوق يلعب

فقال : بلى يا ابن أخى فالعب فإنك فى أوان اللعب ، فقال :

ولم يُلهنى دارٌ ولا رسم منزل ... ولم يتطرّبنى بنانٌ مُخضَّبُ

فقال : ما يطربك يا ابن أخى ؟ فقال :

ولا السانحات البارحات عشية ... أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب

فقال : أجل لا تتطير ، فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بنى حوّاء والخير يطلبُ

فقال : ومن هؤلاء ويحك ؟ فقال :

إلى النَّفر البيض الذين بحبِّهمْ ... إلى الله فيما نابنى أتقرَّبُ

قال : أرحنى ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بني هاشم رهط النبيِّ فإننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضتُ لهم مني جناحى مودَّةً ... إلى كَنَفٍ عطفاه أهل ومرحبُ
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مُحباً على أنى أُذَمُّ وأُغضبُ
وأُرمَى وأرْمِي بالعداوة أهلَها ... وإنى لأُوذَى فيهمُ وأؤنَّبُ

فقال له الفرزدق : يا ابن أخى أذع ثم أذع ، فأنت والله أشعر من مضى ، وأشعر من بقى

وهذه الهاشميات من الدرر اللوامع فى سماء الشعر العربى ، وبها يسمو شعر الكميت على غيره من الشعر ، وقد أجاد فيها فى مدح بنى هاشم والدعاية لهم ، وتصوير حكم بنى مروان تصويراً شنيعاً ينفر الناس منه ، ويدعوهم إلى الثورة عليه ، حتى هيأ النفوس إلى تلك الثورة التى قام بها بعده أبو مسلم الخراسانى ، فقضى على حكم المروانيين ، وأقام بعده حكم العباسيين الهاشميين

ولا شك أن الشعر الذى يبلغ به صاحبه هذه المنزلة العالية ويستطيع به أن يقيم دولة ويقعد دولة ، هو الشعر الذى يستحق به صاحبه الزعامة على شعراء عصره ، لا ذلك الشعر الذي لا يعد وأمره أن يكون ألفاظاً جوفاء لا طائل تحتها ، ولا ثمرة فى هذه الحياة لها

وقد شهد الفرزدق شهادة أخرى لهذه القصائد ، فقيل له : أحسن الكميت فى مدائحه فى تلك الهاشميات ، فقال : وجد آجراً وجصاً فبنى

عبد المتعال الصعيدى

دراسات فى الأدب الانكليزى

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعه الطوال

تمهيد

لقد كانت انكلترا قبل الحكم الأليزبثي غارقة في بحر خضم من الحروب الدينية والنازعات المذهبية، وكان أدباؤها منقسمين إلى عديد البطانات السياسية المتضادة التي كانت لا تفتأ تتناحر فيا بينها على اجتذاب حبل الرأى فى الأمة، ومقاليد الأمور فى الحكومة، والمراكز الملحوظة فى السيادة، وصرفتهم هذه الحروب الدينية السياسية عن طبيعتهم، واجتاحتهم إلى ميادينها الدامية، كما يجتاح السيل الأتىُّ قطعة من الخشب، أو قصبة من القش. فلا عجب إذا تضيقت شمس الشعر — فى انكلترا — للمغيب، ولا عجب أيضاً إذا تعطلت فى الناس أخيلتهم المتوثبة، ومشاعرهم المشبوبة، وصدورهم المليئة بالأحاسيس الوثابة، والعواطف الجياشة، إذ ليس فى البيئة السياسية ثمة ما يغذى هذه الأمور، أو يثير أسبابها ويوقد جذوتها

وما هو الا أن اعتلت اليصابات سدة العرش، وتسنمت عاليها وتقلدت بيدها الحديدية زمام المملكة وأعنتها، حتى سارت فى خطتها على المبادئ القويمة اللاحزبية، فأباحت الناس على مختلف طبقاتهم وملهم الحرية المطلقة في معتقداتهم، فخمد بذلك روح التناحر المذهبي — ولو إلى حين — وانفرط عقد هذه البطانات السياسية المتضادة، إذ قطع التسامح الديني الذي أوجدته اليصابات أسباب تضادها، فاستيقظت مشاعر الشعراء وعواطفهم على هدوء ريح هذا التعصب المذهبي المقوت، وأخذت أخيلتهم المتوثبة تتحرر من أصفادها وقيودها التى كبلتها بها البيئة السياسية مدة من الزمن ليست بالقصيرة. وقد ساعد على هذه النهضة المباركة ذوق الملكة الأدبي، إذ استدنت الأدباء إلى قصرها وقربت الشعراء من بلاطها، فكان عملها هذا وتشجيعها للأدباء بمثابة التعويض العادل للآداب عما خسرته تحت نقع تلك الحروب المذهبية — السالفة الذكر — التى خلقها تكالب الكاثوليك والبروتستنت على السيادة

وما هى إلا فترة من الزمن حتى توفيت اليصابات، فأخذ الأدباء عامة، والشعراء خاصة، ينحتون سبلهم الوعرة فى صخر السياسة الأصم بكل عناء وجهد، إذ كان موتها كالريح الهادئة أذكت سعير تلك النار المذهبية الخامدة، فعادت النفوس إلى شنشنتها القديمة من التخاذل والانقسام الدينى. والتف الأدباء ثانية، كل حول بطانة خاصة، يناصرها فى الجهر والخفاء، ويذود عنها بلسانه وقلمه، وإذ كان الدين علة هذا الانقسام وسبب تحزب هذه الأحزاب، فقد كان نتاج الأدباء إذ ذاك، متسما بالميزات الدينية، والمظاهر الحزبية. وخير من نلتمس هاتين الظاهرتين بوضوح وجلاء فى آثاره « جون ملتون » وهو الذى سنعرض لدراسته فى هذه الكلمة المجلى

شخصيته وحياته

لملتون شخصية فذة محاطة بستر كثيف من الغموض والابهام، ليس من الهين علينا خرقه؛ يدل على ذلك: تشعب الأحكام فيه، وتباين وجهات النظر إليه، وتناصر الآراء عليه. فبينا نرى المعجبين بسمو شخصيته، والمفتونين بسحر شاعريته، يوغلون فى تقديسه وتبجيله، ويبوؤونه وشكسبير سناما واحد من الشهرة والعظمة ولا يرون « لفردوسه » فى الشعر مثيلاً إلا بالرجوع إلى الإلياذة والأوذيسة — إذ بالكثيرين من خصومه يجردونه من جميع مواهب الشاعرية السامية، ويجهدون الفكر فى تسقط سقطاته، وتقصي هفواته، والاحاطة بكل ما من شأنه ان ينتقص من شاعريته وينال من شخصيته. أما الفريق الأول فزعيمهم « وليم هزلت »، وأما الفريق الثانى فعلى رأسهم « جونسون »؛ ولا تظهر الحقيقة بين حالتى الاغراق فى الاعجاب، والتحذلق فى التعرض إلا مجسمة مكبرة، ومشوهة ملفقة، فلا عجب إذا قلنا إن ملتون كان ولم يزل غامض الشخصية، مكتوم الطوية. ونحن إذ نعرض له بتلك هذه الكلمة المجلى، فلسنا ندعى أن فيها فصل الخطاب الذي لا يرد، ولا التوفيق بين مختلف هذه الأقوال المتبلبلة والأحكام المتشعبة، وإنما نريد توجيه اهتمام الناقدين، وجهود الباحثين إليه، وعرض

مختلف المقالات فيه ، تاركين — ما أمكن — للقارىء الكريم الحرية في إمازة غثها من سمينها

* * *

ولد ملتون في « برودستريت » بلندن ، وكان والده كاتباً ؛ وإذ كان من أهل اليسر والرخاء فقد كان شديد الرغبة في تعليمه تعليماً جامعياً عالياً . ولقد كانت طفولته النادرة تنبىء بما سيكون له من المجد المخبوء في جوف المستقبل ، وليس أدل على طموحه وعبقريته وتحفزه للوثوب إلى قمة المجد من تلك القطوعات الشعرية الجميلة التي نظمها وهو لا يزال بعد في ربيع صباه ، تائهاً بكبرياء فتونه

كان ملتون طويل القامة ، ساهمَ الوجه ، شتيت الثغر ، أبلج الحاجبين ، ذا عينين نجلاوين ، أشمّ الأنف ، سخامي الشعر رجله ، مليح الفم ، معتدل الأعضاء ، وكان (كما روى عنه) بارع الجمال ، تمشق منظره العين ، وترتاح لحديثه النفس ، وهو — إلى جانب ذلك كله ، مزهوّ بنفسه معجب بخلقه ، وممتد بذكائه ، تشهد بذلك آثاره العديدة ، وأساليبه الشعرية المستعصية ؛ وما أسلوب الشاعر في قصيدته إلا صورة لطبعه ، ومرآة لأخلاقه

مكث ملتون في بيت والده في « هارتون » حتى منتصف العقد الثاني من عمره ، حيث عاش تحت كنفه عيشة مترفة رخية ، لا ترنق صفوها الأكدار والأحزان ، ولا تعبث بهنائها الهموم والأشجان ، فشب محباً للحرية ، وما من شيء يضعُ في جذوة نفسه المتوقدة ، أو يفل من شباة عزيمته المتحفزة ، وإذ ليس من شاغل يشغله بأمور عيشه ، فقد كان منصرفاً إلى افتعال الشعر والعبث به ، وإلى احتذاء أساليب أفذاذ الشعراء في القريض . وفي عام ١٦٢٤ أدخله والده مدرسة University of christ في كمبردج ، فأقبل على الدرس لا يلوى عنه إلا حين يجهده الفكر ، فنال بذلك استحسان معلميه ومديح عارفيه ، إذ بزّ جميع أقرانه ، واشتهر بين سائر لداته بذكائه اللامع ، وفطنته المتوقدة . وفي عام ١٦٣٢ أنهى علومه الجامعية ونال درجة M.A السامية فغادر كمبردج راجعاً إلى بيته في هارتون ، حيث أكب على مطالعة الآداب الكلاسيكية مدة خمس سنوات تمكن في خلالها من الاحاطة بجميع ما فيها من رائع النثر وجيد الشعر . أما اللغة الانكليزية ، فقد بلغ اطلاعه عليها حدّ الاحاطة بجميع أوابدها المستعصية . وليس أدل على ذلك من مطالعة ملحمته الشهيرة المعروفة « بالفردوس المفقود » إذ تحتاج في كل صفحة إلى الاستعانة بالمعجم عشرات المرات

وبعد أن قضى في هارتون خمس سنوات في الجد والمطالعة ، أخذ يطوف في أنحاء أوربا ، ويتنقل بين مدنها العامرة وعواصمها الزاهرة ، فتلقحت بذلك عبقريته بعناصر أدبية جديدة ، وتجلت مواهبه عن جرائيم شعرية سامية ، لطفت من عرام نفسه ، وليّنت شيئاً من حرونة طبعه ، وزادت في قيمة إنتاجه . ففي عام ١٦٣٨ ذهب إلى إيطالية ، وكانت إذ ذاك كعبة الأدب ، ومثابة الفنّ ، وقبلة الشعراء والمتأدبين ، يحجون إليها في كل عام ليردوا شرعة آدابها الرائعة ، وليروّحوا عن أنفسهم من عنائها ، وذلك بالتمتع بسمائها الصافية ، وأشجارها الباسقة ، ومناظرها المتناسقة . وقد زار من مدن إيطالية فلورنسة ، واجتمع فيها غير مرة بأعظم علمائها وهو غاليلو ، ومنها عرج على رومة وهي العاصمة ، والمثابة العزيزة لسائر أنواع الفن ؛ ثم سار منها إلى نابولى ، وهناك قرع سمعه نبأ الحروب الداخلية التي شبت في انكلترا عن اصطدام حق الملوك الالهي برغبة الشعب الملحة في الحصول على حقوقهم كاملة غير منقوصة ، ولهذا فانه لم يُتمّ رحلته بل رجع إلى وطنه وهو يقول : إنه لمن المزرى بالرجل أن ينشد الراحة في السفر ، بينما مواطنوه يجالدون في سبيل حريتهم

ملتون والسياسة

وبرجوع ملتون من رحلته تبتدئ حياته السياسية ، وهي دور مليء بالجهود الجبارة والأحداث الخطيرة ؛ ولئن كان إذ ذاك مأخوذاً بنزق الشباب وتهور العاطفة إلا أنه أظهر في ميدان السياسة من الحنكة والدهاء والمرونة الدبلوماسية ما لا طاقة على مثله إلا لذوى النبوغ والعبقرية . كان حبل السياسة إذ ذاك مضطرباً بين حق الملوك الألهي وبين ديمقراطية الشعب ؛ وأحياناً بين البروتستنتية المصلحة ، والكاثوليكية المبالغة في المحافظة على تقاليدها — ولو بليت — وكان ملتون خصمَ الملكية اللدود ، وعدوّ البابوية الأزرق ، فلا عجب إذا انهال عليهما بكثير من الامتهان والزراية ، أو تسقط لها كلّ ما من شأنه أن يحطّ من جلالها أو ينال من عظمتها

لقد ناهض الملكية كثيراً ، وقاومها مقاومة غماء الجبين ، حتى أنه لم يدع سانحة تمرّ إلا اهتبلها متنداً بعيوبها ومثالبها ،

شاهراً ظلمها ومساوئها ؛ كما ناصر الطهريين كثيراً في تقويض دعائم الكاثوليكية . والطهريون في ثورتهم على الكاثوليكية ومن ورائها الملكية ، أشبه ما يكونون في التاريخ العربي بالخوارج في ثورتهم على العلويين أولا والأمويين ثانياً ؛ ووجه الشبه بينهما اختلاط الدين بالسياسة في مبادئهما . وما مبادئ الطهريين التي هبوا متشمرين للنضال السياسي في تحقيقها ، إلا صورة من المبادئ الوهابية في جزيرة العرب . ولقد كانت الدعوة الطهرية في بادئ أمرها دينية محضة ، أي كدعوة الخوارج إبان خروجهم على علي ، ولكنها — كمثيلتها — لم تلبث أمام أرستقراطية الملوك أن تنكرت لهم ، واصطبغت مجادلتهم بالصبغة السياسية ، فقد ناهض الطهريون الملوك مناهضة عنيفة ، وأنكروا عليهم حقهم الآلهي في السيادة والسلطة ، وانتزعوا لقطه من أفواههم بعد أن كانوا يتشدقون بمضغه تشدق من يمضغ لقمة دسمة . وما انتصار النظام الدستوري في انكلترا وانهيار دعائم الملكية إلا رمزاً لانتصار المبادئ الديمقراطية على الأرستقراطية ، بل صورة لانتصار الطهريين على جميع منافسيهم ، ذلك الانتصار الذي أملى على ملتون ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود ، وهي صورة حية لما كان عليه الدين إذ ذاك من التبلبل والانقسام ، تطلعنا على مدى ما وصل إليه الطهريون في جهادهم لتدعيم أسس حرية الشعب الدينية والسياسية تلك الحرية التي أنجبت أمثال دن ، وبنيان ، وملتون

ومن كتابات ملتون السياسية رسالته المعروفة : بـ Tenure of King and Magistrates وقد كتبها عام ١٦٤٩ دفاعاً عن إعدام الملك — ذلك الإعدام الشنيع الذي صوره فيما بعد بصورة ترتعد منها الفرائص وتقشعر لها الأبدان في كراسته المعروفة بـ Eikon Basilike

وإذ كان ملتون ظهيراً لكرمويل ومساعداً له ضد الملكية الظالمة ، فقد عينه هذا بعد تسنمه سدة الحكم بمدة وجيزة — أي عام ١٦٤٩ — ترجماناً له في قسم السكرتارية اللاتينية ، وكان عمله ترجمة جميع الدواوين والرسائل إلى اللغة اللاتينية ، إذ كانت اللاتينية إذ ذاك هي اللغة السياسية الوحيدة المتفق عليها بين جميع دول أوربا

« يتبع » خليل جمعه الطوال

أبحاث تاريخية جديدة

الاسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تتمة

ولقد حمل إليهم الإسلام أيضاً نظام الحكم الديموقراطي . ذلك أن نظام الادارة في الاسلام نظام ديموقراطي — لا فارق بين رجال الدين وعامة الشعب — فرئيس المقاطعة هناك هو الليمان Liman (ويبدو لي أنها محرفة عن لفظة الامام العربية) ويختار من بين أفراد الشعب ، وكل الصفات التي يراعيها الناس أثناء انتخابه هي أن يكون على خلق طيب وأن يكون ملماً بالقرآن إلماماً لا بأس به . ومن وظيفته أن يؤم الناس في الصلاة . وليس هناك نظام مركزي يوحد بين هؤلاء الليمانز Limans ، فكل منهم مستقل في إدارته . ويزود الليمان هو والمالم Malam (وأرجح أن أصلها معلم ، فوظيفته تعليم الناس ولا بد أن يكون على علم ولو قليلاً بالقرآن) بما يقدمه الناس لهم من عطايا عن طيبة خاطر . ومهمة هؤلاء المعلمين Malams تعليم الصغار ؛ غير أن أكثر اعتمادهم في الكسب على التمائم التي يقدمونها للناس . والمعلمون كذلك أطباء يستخرجون الأدوية من جذوع الشجر وأوراقه . ومعظمهم طفيليون على المجتمع ، بل إن بعضهم يستخدم تلامذته لسؤال الناس . وكثير منهم ممن ذهبوا إلى مكة وحجوا البيت الحرام يشاع تقديسهم ؛ وهم يستغلون هذه الاشاعات الخيالية طول المدة الباقية من حياتهم . ولكننا برغم هذا لا نعدم أن نجد بين هؤلاء المعلمين من يحيا حياة كلها تقوى وورع وسعى لنشر العلم . وفي معظم الولايات الاسلامية تقام الصلاة كل يوم كما يحتفل المسلمون بعيدى الفطر والأضحى إذ يسمونهما (Karamin Salla & Baban Salla) أي العيد الأصغر والعيد الأكبر

المذاهب الدينية

ويعتبر سلطان سكوتو Sokoto الرئيس الروحي لجميع مسلمي السودان الأوسط حيث يسمونه Sarkin Musulmi ولقد امتد نفوذه في أوائل هذا القرن حتى شمل تمبكتو غرباً وأجادز Agades شمالاً (ولكن هذا النفوذ لم يشمل بورنو حيث يتمتع الشيهو بمركز ديني يضاهي مركز سلطان سكوتو) وهناك مذاهب دينية مختلفة تعمل على تقدم الاسلام ونشره ، أهمها مذاهب القادرية والتيجانية والسنوسية . وللمذهبين الأولين أتباع كثيرون في مختلف أنحاء نيجريا ، وخاصة مذهب التيجانية الذي أسسه أحد أساتذة بلاد المغرب واسمه « سيدي أحمد التيجاني » وكثير من ثورات السودان المحلية يرجع لتأثير هذا المذهب في السودانيين . أما مذهب السنوسية فلم يتعمق إلى الجنوب كثيرا ؛ لقد بلغت دعوته شمال نيجريا وله بعض الأتباع في سكوتو وبورنو . وليس هناك ما يميز أتباع هذه المذاهب عن بقية المسلمين سوى رغبتهم وسعيهم للتطهر ، وسوى حلقات الذكر التي يقيمونها في الحين بعد الحين (وإن كانوا لا يفهمون معنى ما يقولون أثناء الذكر كما يقول Meek)

والمساجد منتشرة في كل مدن الاسلام ، أما في القرى فالمسجد قطعة من الأرض مسورة بحاجز من الخشب

الاسلام ينتشر وإن كان المسلمون لا يبشرون به

لا يوجد بين المسلمين الآن إرساليات تبشيرية تعمل لنشر الاسلام ، ولكن الاسلام ينتشر عفواً بين تلك الجماعات دون بذل مجهود . والجهاد عند المسلمين واجب لنشر دينهم بين الوثنيين ولكننا لو عرفنا أن الجانب الأعظم من دخل الفولاني يعتمد على تجارة الرقيق بدا لنا السبب في عدم اهتمام هؤلاء كثيراً بالتبشير لدينهم بين الوثنيين

ومع هذا فقد كانت هناك إرساليات تبشيرية هامة في أوائل حكم الفولاني . فان لاندر Lander يحدثنا أنه قابل في Island village of the niger معلمين من الفولاني Fulani Malams أرسلهم أمير نوبي Nupe لينشروا تعاليم الاسلام بين السكان الوثنيين

غير أن الاسلام لم ينتشر في تلك الجهات نتيجة سعي الارساليات قدر ما انتشر نتيجة جذب ثقافة المسلم العالية لجيرانه الوثنيين . والآن بعد سهولة المواصلات أصبح المسلمون أكثر اتصالاً بالوثنيين ، وكانت نتيجة هذا أن الوثني الذي يتمدى منطقة إقامته يرى أن من الصالح أن يعتنق الاسلام ، وأن يتبع المسلمين في أسلوب حياتهم ، لأنه سريعاً ما يدرك ضيق دينه إذا قارنه بعالمية الاسلام ؛ وهو إلى هذا كله لا يجد صعوبة في انتقاله من الوثنية إلى الاسلام ، فهو بالمباشرة يستطيع بسرعة أن يستسيغ نظم الدين الجديد . والوثني كذلك يرى أن المسلم متسامح وأنه يعيش في منزل أنظف من منزله ويرتدي ملابس خيراً من ملابسه ، وله بالعالم معرفة أوسع من معرفته . فلا غرو بعد هذا إن فضل الوثني الاسلام فاعتنقه . والوثني عند ما يسلم يغسل جسمه كله ثم يعلن إسلامه في المسجد

نظم التعليم في تلك الجهات

وهناك مدرسة في كل بلدة من بلاد الاسلام يديرها معلم من الأهلين ، ويرسل إليها الأطفال في سن مبكرة غالباً بين الثالثة والرابعة ، يرسلهم آباؤهم إلى هذه المدرسة فراراً من الجهد الذي يبذلونه لرعايتهم . ومن هؤلاء المعلمين من يمارس التجارة إلى جانب مهنة التعليم . أما الأطفال فهم يستمعون إلى دروسهم في العادة ساعة في الصباح وساعة في المساء ، وهؤلاء الأقوام لا يهملون تعليم بناتهم . ويتاقى التلاميذ دروسهم عادة قبل شروق الشمس وبعد غروبها حتى يستطيع الصبية منهم خدمة الحقول أثناء النهار

وأول ما يتعلم الأطفال الصلاة ، ثم يعلمون كيف يقرأون القرآن ، ثم يتلقون بعض الواجبات الدينية كشروط الوضوء وطرق الاغتسال وغيرها . والأطفال يقرأون العربية جميعاً وراء معلمهم بصوت مرتفع منغم . وإذا تقدم الأطفال في السن وكبروا علموا شيئاً من تفسير القرآن ؛ غير أن نظم التعليم العامة عندهم تسير على نهج آلي . فمعظم الأولاد يحفظون القرآن كله أو بعضه ، وهم لا يفقهون له معنى . بل إن أكثر المعلمين هناك ثقافة لا يعرف شيئاً عن التطور الفكري الذي يسود العالم الاسلامي اليوم . وإن كان هناك نفر من النيجريين على درجة كبيرة من العلم والثقافة فمنهم شيهو دان فوديو Shehn Dan Fodio وقد ألف كتاباً في اللاهوت وابنه بلو Belo وهو نحوي ومؤرخ مشهور وغيرهم كثيرون . ولا يتقاضى المعلمون مرتبات غير الهدايا التي تقدم إليهم . وعند ما يتم الولد دراسته يأخذ العلم من أهله حلاً أو عنزة ومع هذا فان ٣٪ من المسلمين فقط هم الذين يقرأون ويكتبون

فضل الاسلام فى توحيد هذه القبائل المبعثرة

يبدو لنا بعد هذا بوضوح كيف أن نظم الاسلام الاجتماعية والسياسية توافق الزنوج كل الموافقة خصوصاً وإن زنوج السودان يسود بينهم الدم الحامى أو دم البحر الأبيض المتوسط . فالاسلام إذ يفرض على هؤلاء الناس الختان ويبيح لهم تعدد الزوجات ويمنعهم عن أطعمة خاصة ويحرضهم على أن يكونوا أحرارا ، لا يطلب منهم المستحيل ، بل إن Meek يقول « إن الاسلام إذ يفرض على الزنوج عبادة الله لا يفرض عليهم جديداً فإن Animistic people فى نيجريا يعتبرون إله السماء هو المسيطر والمنظم للعالم »

وبعد هذا فإنا لا ننسى كيف حمل الاسلام إلى هؤلاء الأقوام الشعور بضرورة الوحدة ، فلقد جمعهم بعد تفرقة . والفضل كل الفضل للاسلام إذ كون من تلك القبائل المبعثرة وحدات متحدة قوية ؛ بل إن ميك يعترف بالفضل للاسلام إذ وحد هؤلاء الناس حتى استطاع الانكليز أن يحكموهم هذا الحكم غير المباشر . وإن كان المسلمون فى تلك الجهات هم الذين يتولون أمورها ولهم قيادة الرأى العام فيها

* * *

لقد رأينا كيف اتسعت موجة الاسلام واتسعت حتى تلاشت فى القرن التاسع عشر وابتدأت حركة الاستعمار ووجد المستعمرون أن مصدر الصعاب التى قامت فى طريقهم هو الاسلام والخلاف الدينى بينهم وبين أهالى الجهات المستعمرة . ولذلك فهم يبذلون الآن جهدهم لنشر المسيحية حيثما حلوا . وهم يجذبون الناس إليهم بمختلف الوسائل التى تحمل طابع الانسانية ، فهم ينشئون المستشفيات والمدارس ودور اللهو والكنائس وغيرها . ثم هم يجتهدون أخيراً أن يحولوا بين مسلمى السودان وزنوجهم لينشروا بينهم المسيحية . ولكن واجب المسلمين الآن أن يلقوا بالدعوة من جديد حتى تبتدئ الموجة ثانية وتتسع . . وتتسع حتى تصل إلى هؤلاء الأقوام فتحسن من تعليمهم وتعمل على تقوية إيمانهم . ولا أحسب أن هناك قطراً يصلح لهذه المهمة غير مصر؛ ولا أحسب أن معهداً فى مصر يصلح لهذه المهمة غير الأزهر، ورجال الأزهر . فهل يفكر القوم فى هذا ؟!

جمال الدين محمد الشيال

المراجع

1 — Keane: North Africa

2 — Hogben: The Muhammedan Emirates of Nigeria Oxford 1930.

3 — H. H. Johnston; The Colonization of Africa Cambridge 1913

4 — Meek: Northern Nigeria v. II

١ — ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب . طبعة لايدن سنة ١٨٤٨

٢ — ابن خلدون : المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب طبعة لايدن ١٨٤٧

٣ — المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب طبعة لايدن سنة ١٨٤٧

٤ — ابن بطوطة : رحلته المسماة « تحفة النظار ... الخ »

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٧١ — فان لم ينتهوا راجعت ديني

كان أبو الطراب من لصوص الحجاز فتاب فظُلم فقال :

ظلمتُ الناس فاعترفوا بظلمى فتبت ، فأزمعوا أن يظلمونى
فلست بصابر إلا قليــــلاً فإن لم ينتهوا راجعت دينى

٢٧٢ — الشاهد عند الحاجة

قال أبو العيناء : ما رأيت قط أحسن شاهداً عند حاجة من ابن عائشة . قلت له يوماً : كان أبو عمرو المخزومى يصلك ثم جفاك ، فقال :

فان تنأ عنا لا تضِرْنا ، وإن تعــد
تجدنا على العهد الذى كنت تعلم[1]

٢٧٣ — ما زلت تخفى الصدقات

مرّ الفرزدق[2] بالحكم بن المنذر بن الجارود فاستسقاه ماء ، فقال : هلا لبناً يا أبا فراس ؟ قال : ذاك إليك . فملأ له عُساً[3] من خمر ، وأمر فحلبت عليه لقحة[4] فصعدت الرغوة فوق الشراب وأتاه به فشربه حتى صك بالعس جبهته ، وانتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، فمسح سِباله وقال : جزاك الله خيراً ! فإنك ما زلت تخفى الصدقات ، ونعمّا هى[5]

٢٧٤ — وهذا ينتسب عرضا

سئل رجل عن نسبه فقال : أنا ابن أخت فلان . فقال أعرابى : الناس ينتسبون طولاً ، وهذا ينتسب عرضاً[1]

(١) لجرير بن خرقاء العجلى

(٢) معرب (برازده) الرغيف يسقط في التنور أو فتات الخبز ، وهو لقبه واسمه همام

(٣) العس : القدح الضخم يروى الثلاثة والأربعة والعدة

(٤) اللقحة : الناقة الحلوب . بكسر اللام وفتحها

(٥) اقتبس الحيث عابثاً ، والآية الكريمة : (إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير)

٢٧٥ — بل يزوج

كان ذئب ينتاب بعض القرى ويعيث فيها ، فترصده أهلها حتى صادوه وتشاوروا فى تعذيبه . فقال بعضهم : تُقطع يداه ورجلاه ، وتدق أسنانه ، ويخلع لسانه . وقال بعضهم : بل يصلب ويرشق بالنبال . وقال بعضهم : بل توقد نار عظيمة ويلقى فيها . وقال بعض المتحنين بنسائه : لا ، بل يزوج . وكفى بالتزويج تعذيبا ! وفى هذه القصة يقول الشاعر :

رب ذئب أخــذوه وتمــارَوا فى عقابهْ
ثم قالوا : زوِّجــوه وذروه فى عــذابهْ

٢٧٦ — فأما البخارى وكافر لما سمعناه

قال ابن العماد الحنبلى : كان عبد السلام[2] بن عبد الوهاب ابن عبد القادر الكيلانى — ويلقب بالدكن — أديباً كيساً مطبوعاً عارفاً بالمنطق والفلسفة والتنجيم وغير ذلك من العلوم الردية ! وبسبب ذلك نسب إلى عقيدة الأوائل

(١) ابراهيم الحجارى :

سألته عن أبيــه فقال : خالى فلان
فانظر عجائب ما قد أتت به الأزمان

(٢) ولد سنة ٥٤٨ وتوفى سنة (٦١١) في شذرات الذهب : كان عبد السلام حنبلياً وولى عدة ولايات ، وقد جرت عليه محنة فى أيام الوزير (ابن يونس) فانه كبس دار عبد السلام هذا ، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفاء ، وكتباً من كتب السحر والنيرنجيات وعبادة النجوم ، واستدعى ابن يونس العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان ، وقرئ فى بعضها مخاطبة زحل يقول : أيها الكوكب المضئ المنير ، أنت تدبر الأفلاك ، وتحيي وتميت ، وأنت الهنا . وفي حق المريخ من هذا الجنس ، وعبد السلام حاضر . فقال ابن يونس : هذا خطك ؟ قال : نعم . قال : لم كتبته ؟ قال : لأرد على قائله . فأمر باحراق كتبه . فجلس قاضى القضاة والعلماء وابن الجوزى معهم على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة وأضرموا ناراً عظيمة تحت المسجد ، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم ، والكتب على سطح المسجد ، وقام أبو بكر بن المارستانية فجعل يقرأ كتاباً كتاباً من مخاطبات الكواكب ونحوها ، ويقول : العنوا من كتبه ومن يعتقده — وعبد السلام حاضر — فصيح العوام باللعن ، وقد تعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر بل إلى الامام أحمد ، وظهرت الأحقاد ، ثم حكم القاضي بتفسيق عبد السلام ، ورمي طيلسانه ، وأخرجت مدرسة جده من يده ويد أبيه عبد الوهاب ، وفوضت إلى ابن الجوزي . ولما قبض على ابن يونس ردت مدرسة الشيخ عبد القادر إلى ولده عبد الوهاب ، ورد ما بقى من كتب عبد السلام التى أحرق بعضها

رأى عليه والده يوماً ثوباً بخاريا — وكان عبد الوهاب كثير المجون والدعابة — فقال : والله هذا عجب ! ما زلنا نسمع (البخارى ومسلم) فأما (البخارى وكافر) فما سمعناه !

٢٧٧ — كفيتنا مؤونة مراجعته . . .

كتب القاضى أبو يوسف كتاباً وعن يمينه انسان يلاحظ ما يكتبه ، ففطن له أبو يوسف ، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال : هل وقفت على شيء من خطأ ؟

فقال : لا والله ولا حرف واحد

فقال له أبو يوسف : جزيت خيراً حيث [١] كفيتنا مؤونة مراجعته . ثم أنشد :

كأنه من سوء تأديبه أسلم فى كتّاب سوء الأدب [٢]

٢٧٨ — فانظر الى حجر صلد يكلمنا

قال أبو عامر البريانى فى الصنم الذي بشاطبة :

بقيةٌ من بقايا الروم معجبة
أبدى الثبات بها من علمهم علما [٣]

لم أدر ما أضمروا فيه ، سوى أمم تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالبرد الفرد ، ما أخطا مشبهه حقاً لقد برد الأيام والأمما !
كأنه واعظ طال الوقوف به مما يحدث عن عاد وعن إرما [٤]
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا أسمى وأوعظ من قُسّ لمن فهما

(١) حيث للمكان (وللزمان عند الأخفش) وهى هنا للتعليل واستعمالها بهذا المعنى فى كلام المولدين كثير فى فاتحة المفصل : « ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج » وفى (الكشاف) وغيره مثل ذلك

(٢) البيت في (كتاب الأوراق) هو لاحمد بن يوسف من وزراء المأمون . (الكتاب) جمع كاتب فأطلق على محله مجازاً للمجاورة (التاج) وعند المبرد : المكتب موضع الكتاب . وخطأ من جعل الوضع الكتاب وابن الأعرابى يقول : يقال لصبيان المكتب الفرقان أيضاً وفى (التاج) نقل شيخنا عن الشهاب فى شرح الشفاء أن الكتاب للمكتب وارد فى كلامهم . ولأبى العيناء ويروى لابن عروس الشيرازى :

تباً لدهر قد أتى بعجاب ومحا فنون العلم والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدى فيهم رددتهم إلى الكتاب !

(٣) معجبة : بكسر الباء : حسنة جداً ، أو حاملة على التعجب . وبفتحها ذات عجب : زهو كبر

(٤) يقصد بعاد وارام أقدمين ، ماضين

٢٧٩ — وأنتم كدود الخل

فى (إرشاد الأريب) لياقوت : حدث الرئيس أبو الحسن هلال قال : قلت لجدى أبى إسحق (الصابى) — تجاوز الله عنه — وهو يشكو زمانه : ياسيدى ، ما نحن بحمد الله تعالى إلا فى خير وعافية ونعمة كافية . فما هذه الشكوى التى تواصلها ، ويضيق صدرك بها ، ويتنغص عيشك معها ؟ فضحك وقال : يا بنى ، نحن كدود العسل قد نقلنا منه إلى الخل فلهذا نحس بحموضته ، ونأسى ونحزن على ما كنا فيه من العسل ولذته . وأنتم كدود الخل ماذقتم حلاوة غيره ، ولا رأيتم طلاوة [١] ضده

٢٨٠ — يا ابن تيار بايد اندكى شادى

فى (عيون الأخبار) : قال على بن هشام : كان عندنا بمرو قاص يقص فيبكينا ، ثم يخرج بعد ذلك طنبوراً صغيراً من كمه فيضرب به ويغنى ويقول :

با إبن تيار بايدْ أندكى شاكى

معناه : ينبغى مع هذا الغم قليل فرح

٢٨١ — ولكن بدموعى !!!

نوّرَزَ الناس ونوّرزتُ ولكن بدموعى [٢] ! وذكت نارهمُ والنار ما بين ضلوعى !

٢٨٢ — قبل أن يبادرنى بالعقوق

تزوج أعرابى على كبر سنه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أبادره باليتم قبل أن يبادرني بالعقوق ...

(١) طلاوة : مثلثة ، حسن بهجة

(٢) نورز : من النيروز والنوروز أيضاً ، وهو أعظم أعياد الفرس . وكانت عادة عوامهم فيه رفع النار فى ليله ورش النار فى صبيحته ، وفى ذلك يقول المعوج :

كيف ابتهاجك بالنيروز يا سكنى وكل ما فيه يحكينى وأحكيه
فناره كلهيب النار فى كبدى وماؤه كتوالى عبرتى فيه

ومعنى نيروز يوم جديد . حكى أنه قدم إلى على (رضى الله عنه) شئ من الحلوى فسأل عنه . فقالوا : للنيروز . فقال : نيروزنا كل يوم .. وفى المهرجان قال : مهرجونا كل يوم . وفيه استعمال الفعل من الالفاظ الاعجمية ؛ وهو من قوة الفصاحة ، وطلاقة اللسان ، والقدرة على الكلام (نهاية الارب ، اللسان ، التاج)

قطعتان من روائع أدب الغرب

١ — حنين إلى الوطن

للشاعر الناثر : شاتوبريان

ما أكثر ما تكن جوانحي من ذكريات عِذاب
عن البلد الجميل الذي فوق أرضه ولدت ، وتحت سمائه ترعرعت !
أختاه ، ما أجمل تلك الأيام التي أنفقناها في فرنسا !
دمت يا بلادي محطاً لنراي ومنية لفؤادي !

* * *

هل تذكرين يا حبيبتاه أمنا الرءوم
حين كانت تضمنا إلى صدرها الحنون
باسمة الثغر ، متهللة الوجه بقرب موقد كوخنا
وحين كنا نلثم معاً شعرها الأبيض الجميل
هل تذكرين ؟

* * *

هل تذكرين يا أختاه ذلك القصر الباذخ
وقد خوّض في النهر بقدميه
وذلك البرج القديم ، المسرف في القدم
حيث يقرع الناقوس مؤذناً بانبلاج الصبح وعودة النهار
هل تذكرين ؟

* * *

هل تذكرين تلك البحيرة السجواء
وقد داعبها السنونو بأجنحته الخفيفة السوداء
والقصب المياس وقد طأطأت هامه الرياح النكباء
ومليكة النهار الفتانة ، وقد احتضرت فوق ثبج الماء
هل تذكرين ؟

* * *

هل تذكرين صديقتي «هيلانه» ، رفيقة الحياة الحنون
هل تذكرينها في الغابة حين كانت — وهي تقتطف الزهرة البديعة
تسند صدرها الجياش إلى صدري
وتضم قلبها الخفاق إلى قلبي
هل تذكرين ؟

* * *

أواه ! من ذا الذي يعيد إليّ « هيلانه »
وطودي وتلك السنديانه ؟
ذكرياتهم هي التي ترمض أحشائي بالألم
آناء الليل وأطراف النهار
دمت يا بلادي محطاً لنراي ومنية لفؤادي

* * *

٢ — الفراشة Le Papillon

للامارتين

تولد حين يذر قرن الربيع ، وتقضي لما يرفرف الموت فوق أكمام الورد :
تسبح وقد امتطت جناح النسيم ، في سماء صافية الأديم
وتتأرجح على أكمام أزاهير لا تكاد تتفتح
فيسكرها عَرْف تفاح ، ونور لماح ، وزرقة بهيجة
تنفض الغبار عن جناحيها والميلاد حديث
وتطير صاعدة إلى السموات العلى خفيفة كالنسيم
تلك حياة الفراشة المشرقة
إنها لتحكي الرغبة : تمس كل شيء ولا تقع أبداً على شيء
ثم تعود أخيراً إلى السماء تنشد اللذة الفقيدة

حماة « سوريا » — عارف قياسه

احياء النحو

أهدى الأستاذ ابراهيم مصطفى أستاذ اللغة العربية بالجامعة المصرية كتابه النفيس «إحياء النحو» إلى صديقه الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين ، فأجابه الأستاذ على هديته الثمينة بهذه الأبيات :

لَوْ كانَ عصرُكَ للمَوَاهِبِ مُنْصِفا ... لدعاكَ حقّاً «سيبَوَيهِ مصطفى»
أحْيَيْتَ للفُصْحَى لِساناً مُرْهَفاً ... سَلّتْ عليه الأعْجَمِيَّةُ مُرْهَفا
لَوْ عَاصَرَ الدُّؤَلِيَّ فَضْلُكَ لَمْ يكُنْ ... لِلنَّحْوِ غيرُكَ وَاضِعاً ومُصَرِّفا
شَرُفَتْ بِكَ العَرَبُ الكِرَامُ وَإنَّها ... لَجَدِيرَةٌ بك أن تتيهَ وتَشْرُفا
أَلْقَتْ وَدِيعَتَها إليك فَصُنْتَها ... لا وَانِياً عنها ولا مُتَكَلِّفا
للهِ سِفْرٌ أنت ناسِجُ وَشْيِهِ ... أزرَى بما نَسَجَ الرَّبيعُ مُفَوَّفا
كَمْ مَذْهَبٍ في النَّحْوِ عادَى مذهباً ... تجْرِي بيَانُكَ في العُدَاةِ مُؤَلِّفا
وَتَنَكَّرَتْ سبل الهُدَى فيه إلى ... أنْ لاحَ نُورُ حِجاكَ فيه مُعَرِّفا

أحمد الزين



من أساطير الإغريق

پومونا

للأستاذ دريني خشبة

عروس من عرائس الغاب يترقرق الجمال في إهابها الوردى وتلتمع في فمها الرقيق الخمرى ثنايا من اللؤلؤ الرطب، وتبسم ... فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل في قلوب العاشقين، تلسعهم، وتسقيهم رحيقاً ! !

هى بدع من عرائس الغاب ؛ فهى لاتنشى الأنهار تتلاعب في طيات أمواجها ؛ وهى لاتحب البحر لا هادئاً ولا متمرداً ؛ وهى تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعى والوحوش، ومنظر هذه حين يساور أحدها الآخر يبعث في نفسها اشمئزازاً، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظالمة التى جعلت الضعيف فريسة للقوى يذله ويقتله ... ثم يأكله

لذلك أولعت پومونا بالحقول الساكنة الهادئة، إلا من نشاط الحياة يسرى فيها فتهتز وتربو، ثم تكتسى بالسندس، وتنضر بالزهر، وتطن بموسيقى اليعاسيب ... وأولعت كذلك بالحدائق .. وقد غرست حديقتها على عُدْوَة النهر، وسَوَّجَتْ عليها بسياج من شوك، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين ... وكانت تقضى في جُنينتها أكثر وقتها، ولو استطاعت لم تبرحها قط، لأن الزنبق الغض، والنسرين الجميل، وأكمام الورد، وهالات البنفسج، ونضرة الشقائق، وأرج التفاح، وعبق الرياحين، وشذى أزهار الخوخ العقيقية، وابتسامات الأقاح، ولآلىء الندى المبعثرة فوق العشب ... كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلى، ونفسها العزوف، من هؤلاء الناس، والآلهة، وأنصاف الآلهة، الذين كانوا ينتظرون أوبتها في المساء إلى دارها، فيقفون في طريقها، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب، حائر الروح، خفق الأحشاء موهون القوى !

وكائن من قائل لآخر :

— أرأيت پومونا هذا المساء يا صاح ؟

— الحسَّان الفتان ! أجل والله ... رأيتها، وأورثتنى ألف حسرة يا صديقى !

— أوَ مشغوف أنت بها حبا ؟

— ومنذ الذى لم تشغفه پومونا حبا، وقد تبلت قلوبَ الآلهة؟

— إنى أغار من كلماتك أيها الصديق ... فاقصر ! !

— وأنا أغار من غيرتك، فاذهب لطيتك ! !

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذى ينقدح من أغوار قلبه ... عن طريق عينيه ... ثم يمضى كل فى سبيله . وهكذا تمادى الناس فى پومونا، وهكذا تنافس الجميع فى حبها حتى الآلهة فلقد رآها أپوللو وجن بها جنوناً، ولقيها مارس وفتن بها فتوناً ... ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع، لايتفتح قلبها لحب ولا يرق قلبها لشكاة المغرم الصب ؛ وكل ما كان يصبيها، ويشغل بالها، هو هذا الفردوس الحبيب، الذى لايضايقها بكلمات الغزل، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة ؛ بل يحييها دائماً بالابتسامات البريئة وبالرَّوح والشذى

غير أن واحداً من عشاق پومونا كان يعدل لاحبه لها حب، ولا يسمو إلى افتتانه بها افتتان ... فتى لمحها مرة تطوى الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها، فوجده منجذباً إليها، مجنوناً بها، فتبعها، وجعل يقلب عينيه فى مفاتن شعرها المهدل فوق ظهرها وكتفيها، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعين، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق، كأنهما ختم الطبيعة فى صك البكور

أو زهرتان من اللوتس، ترشفان سلافة الندى ... وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح، فتضرمان في قلب ڤرتمنوس نيران الحب، وتزلزلانه زلزالاً عظيما

وعرف الفتى ميعادها، فكان يصحو مع الفجر، ويهرع إلى الطريق، ويلبث يعد الدقائق والثواني كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد ... حتى إذا أقبلت، شعر بقلبه يخفق، وأعصابه تذوب، وأحس كأنه خفّ على الأرض، وغدا طيفاً يوشك أن يسرى مع نسيم الصباح الذى تنشقه پومونا ... له الله! لكم منّى نفسه بقبلةٍ يطبعها على هذا الفم الشتيت تُذهب حرّ قلبه وتشفى صدَى روحه الظامئة المتعطشة، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سالبة لبه، ولا لب له، ولا قلب معه، ولا مداوى لجراحات فؤاده إلا دموعه يسكبها عبرة فى إثر عبرة، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحا!

* * *

وذوى ڤرتمنوس وذبل شبابه، وشفّه الهم وأضوى جسمه الفكر، واستسلم لبكاء طويل يتملل به، وغناء يشبه العويل، يرسله فى نبرات تشبه الأنين، يضمنه بثه، وينظمه شكواه، ويلف فيه بقايا فؤاده المعذب، ويودعه النُّطف الأخيرة من روحه الحيرانة، ويذهب به فى الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش، وتسكر بموجع أنغامه الهوام، ويرقص من فوقه الشجر ... ثم يبكى كل هؤلاء له ... ويعود من حيث أتى!

ولقيته مرة ڤينوس فرقت له، ورثت لحاله، وراعها أن يأتى غب كل هذا العذاب، فى هوى عروس غاب، فجلست إليه تسامره وترفه عنه

— أهكذا يقتل الناس الحب يا ڤرتمنوس؟

— إي وحقك يا ربة! لقد نال منى هواها، ولم أعد أفكر فى أحد سواها!

— مسكين! وهل كلمتها قط؟

— مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها، ولكنها أشاحت وأعرضت عنى

— وفيم تطمع إذن؟

— أطمع فى رضائها، وأطمع بعد ذلك فى العيش فى ظل حبها

— وإذا لم ترض؟

— سأعيش لحبها وآلامى! ولكن؟

— ولكن ما ذا يا ڤرتمنوس؟

— ألا تساعدينى يا ربة الجمال؟ ألا تتفضلين فترققى قلبها علىّ؟

— عندى فكرة!

— أضرع إليك يا ربة!

— سأمنحك قدرة التشكل، وتستطيع أن تبدو فى أى صورة شئت

وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات، ثم نفثت فيهن وتمتمت بكلمات سحرية، ونظرت إلى الفتى فى ظرف ودل، ونثرت الماء فى وجهه

— والآن، فكر فى أي صورة تنقلب إليها

وأخذ ڤرتمنوس يتقلب فى صور شتى ... وكلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع، فتضاحكت ڤينوس وقالت له:

— فكر أيضاً فى صورتك الأصلية قليلا ...

وسرعان أن عاد إليها ... ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له:

— تستطيع الآن أن تلق پومونا، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك! ورفت ڤينوس فكانت فى سماء الأولمب!

* * *

واستطاع ڤرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته فى أى لحظة شاء. وكان يدخلها فى صورة بلبل غرِد، ما يزال يغنى ويهتف حتى يلفت إليه أنظار پومونا وأسماعها! وكان يتبعها أينما ذهبت فيقف على أقرب شجرة، ثم يرسل أغانى الحب وأغاريد الغرام، فتنسكب فى أذني عروس الغاب، فتقف لتسمع لحظة، ثم تأخذ فى عملها كأنها لم تسمع شيئا ... فيتضايق الفتى، ويطير أسوان أسيفا ...

واستمر على هذه الحال أشهراً، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً، ويفنى فيها حباً، حتى خيف عليه من المرض؛ وأحس هو أن ريب المنون يسرى فى عظامه، وبرد اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه؛ ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته فى صورة أخرى تختلف عن تلك الصور البلبلية التى اعتاد أن تراه فيها، ثم عول هذه المرة — إذا لم يفز بحبيبته پومونا — على أن ينتحر تحت قدميها فى صورة البلبل الحزين!

رأى أن يزورها فى صورة عجوز شمطاء! ولم لا؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن؟

أليس لهن حديث طلي يتصل من حيث ينقطع ، ويتشقق عن كل خرافة حلوة وكلة طيبة ، وبأسلوب ظريف يشبه (تنميل) الخمر فى أطراف السكارى ؟ !

وقف فرتمنوس فى ظل أيكة باسقة نامية فى منعرج قريب من حديقة بومونا ، ثم طفق يفكر فى صورة عجوز طيبة القلب ، سمحة الملامح ، وراح يتخيل شعرها الأشمط[1] وذوائبها الخلس[2] وغدائرها الزعر[3] ، ويديها عاريتى الأشاجع[4] ، وعينيها الغائرتين ، وجبينها المجعد ، ووجهها المعروق[5] ... فكان له كل ذلك ، ثم كانت له هيبة ووقار وأسر ، فى سكينة ودعة وحسن سمت ... وأضفى عليه حبرة سوداء فضفاضة ، وجعل فى قدميه خفين هرمتين ، وفى يده عكازاً مقوساً ما أشبهه بصولجان الموت !

ثم جعل يدب فى هيئته تلك ، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه ؛ وكانت بومونا تقطف الزهر وتصنع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس الغاب فى مثل ذلك اليوم من كل أسبوع ... فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها ، أسرعت إليها وحيتها أحسن تحية وألطفها ، ثم فتحت لها وأدخلتها ، وكانت الخبيثة — أو كان الخبيث — تبالغ فى إظهار الضعف وتمثل الإعياء ، فكانت بومونا تسندها من هنا ، وتشد أزرها من هناك ... حتى وصلتا آخر الأمر إلى ظلة وارفة ذات أفياء ، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج ، يغازل العيون والأحشاء ؛ وأشارت العروس إلى العجوز كي تجلس على إحدى الأرائك التي صفت عليها الوسائد والحسبانات[6] ففعلت ، ولكن ... ؟ بعد أن أخذت بفوديّ بومونا ... وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة ... قبلة الأمانى والأحلام ! !

لقد شدهت بومونا من أسر هذه القبلة ، لأنها لم تكن من تلك القبل الفاترة الباردة التي تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء ؛ بل كانت قبلة ناعمة فيها خمر ولها حميا ، وفيها شعر وموسيقى ، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتي العجوز كأنما حاولت أن تلقى فى صدر الفتاة بكل أسرارها ! !

ولو لا أنها كانت عجوزاً حيزبوناً لعشقتها بومونا ...

* * *

وثبت الفتاة فقطفت عِزقاً[1] من العنب وقدمته للضيفة العجوز ... ولكنها بدلاً من أن تجدها تهش للثمر الجنى الشهى وجدتها غائبة عن رشدها ... أو ... كالمغشى عليها ! ترى ! ماذا أصاب أخانا فرتمنوس المختبئ فى جلد هذه العجوز ؟! آه ! مسكين! إنه لم يكد يفيق من سحر القبلة ، حتى رفع بصره إلى بومونا ، فشهد العجب العاجب ، والجمال النادر ، والحسن الباهر ، والرونق والبهاء والرواء !! لقد شهد الساقين الجميلتين والقدمين الصغيرتين وشهد الركبتين الرائعتين الملتفتين ... وقليلاً من الفخذين اللجينيتين ... فاستطير لبه ، وصبا قلبه ، وشردت أفكاره ، وغشى عليه ؟ !

ولما أفاق — أو أفاقت العجوز — سألتها ماذا أصابها ، فشكت وطأة السنين وضعف البدن ، وتهافت أعضائها من الكبر ؛ ثم شكرت لها عزق العنب ، وأخذت فى أكل حباته ، وهى تخالس العروس النظرات ... ثم نظرت إلى الكرم العارش فوقهما ، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية ، ثم قالت تحدث الفتاة :

— أرأيت يا حبيبتى (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش ، هل كان يؤتى أكله ، ويحلو عنبه كما هو حلو هكذا ؟

— كلا يا أماه ! هذا شىء بدهى !

— تعنين أن الكرم لا يستغنى عن هذا العريش ! ؟

— طبعاً !

— ولا غناء للعريش من غير كرم !

— لا يكون منظره جميلا رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم!

— عجباً لكن والله يا عذارى !! تعرفن ذلك ، ولا تفكرن فى عطلكن !!

— أو عاطل أنا يا أماه ؟ ماذا تقولين !

— عفواً يا ابنتى ... فإن لك ألف حلية من جمالك الذى لا جمال مثله ... إنما قصدت أ تكن تزهدن دائماً فى أن يكون لكن أزواج كما لهذا الكرم عريش ... لا سيا أنت يا صغيرتى بومونا إنى أعرف أن كل شباب المدينة مولعون بك ، وكل أمراء النواحى متيمون فى هواك ؛ وأعرف أيضاً أن منهم من يتعذب بالليل ، ويذل بالنهار ، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك فى الطريق ، وقد وقف لهذا اللقاء ساعات وساعات ... بل أعلم

---

(١) بياض الشعر يختلط بسواده ويزيد عليه

(٢) يعني أشمط واحدتها خلساء وخليس

(٣) جمع زعراء أى قليلة الشعر جداً (٤) بدت عروقهما

(٥) قليل اللحم (٦) المسائد

(١) عنقوداً

يا أجمل عرائس الغاب أنك قد بززت هيلين الهيفاء ، وبنلوب اللعوب فى كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك ، وتخبت قلوبهم لحسنك ، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين . ماذا ؟ لم يا بنيتى لا تختارين لنفسك من بينهم كفءاً يقاسمك هذه الحياة وتقاسمينه ، ويشركك فى هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه ، ويبسم لك وتبسمين ، ويواسيك وتواسين ؟ ما غايتك من هذه الوحدة ، وأنت بها فى منئ ، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة ، ومثلها من الورود والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذى اسمه ... أسمه ... أسمه ماذا ؟ آه ! فرتمنوس ! ذكرت أنى سمعت أنه يحبك حباً أورثه السهد ، وأولاه الضنى ، حتى لم يبق منه هواك إلا حشاشة تترقرق دموعاً فى عينيه ، وتتأجج نيراناً فى صدره ... لم لا ترحمينه يا بومونا ؟ لم لا ترثين له يا أجمل عرائس الغاب ؟ إنه ليس إلها ولا نصف إله ، ولكنه خليق بحبك جدير بأن تكونى له من دون العالمين ، لأنه مغرم بك أكثر من كل عشاقك ؛ وهو ليس كجميع العشاق ، لأنه لم يحببك إلا عن بصر بك ، وتقدير لحسنك ، ولأن عشاق هذا الزمان مفاليك لا ألباب لهم ، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى فى صدورهم ، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم إليها ، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشياطين أن تتصرع تحت قدميها . . . أما فرتمنوس ، فقد أحبك ولم يشرك حسناء فى هواك ، لأنه لا يرى لك فى قلبه شريكة تسمو إلى إخمصيك ... إرحميه يا بومونا ، اعطفى عليه ، وانظريه كأنه يتوسل إليك بلسانى ، ويشكو لك بثه بعينى (!) ... ألا تخافين أن تقتص له فينوس منك ؟ ألا تعلمين أنها تثأر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب ؟ ألم تعرفى ماصنعت بالقاسية أناجزرتيه ؟

— ومن أناجزرتيه يا أماه ؟ وما قصتها ؟

— ألا تعرفينها ؟ ولا تعرفين مأساة الفتى إيفيس ؟

— وما مأساة إيفيس ؟ قصيها على بالله عليك !

« لقد كان إيفيس فتى جميل المحيا وضاء الجبين ، ولكنه كان من صميم الشعب ؛ وكانت أناجزرتيه من بنات الأعيان الموسرين ... وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع إيفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون . وكان كلما لقيها غشيه من الغرام مالو حمله جبل لناء به ، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه وتزور ، وتطوى الطريق بعجلاته إلى قصرها الباذخ المنيف ذى الشرفات ... وكان الفتى يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدى ثم توصده من دونه ، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع اللهفان من خلل القضبان ، ثم يذرف دموعه ، وينثنى إلى داره ، وليس فى قلبه إلا حبها مع ذلك ، ولا فى عينيه الباكيتين إلا صورتها ! وطالما كان يهب من نومه فى جنح الليل فيطوى الطريق مفزّعاً ، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها ، وعانق قضبانها ، وبكى ماشاءت الآلهة ، وتغنى آلامه وغرامه ، ثم ارتد وقد تضاعف وجده ، وازدادت صبوته ... وكم ذا رأته أناجزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه ، بل كانت لا تعفيه من كلمة قارصة ، أو غمزة تهكم واستهزاء ، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة ؛ بل زادها ذلك قسوة وعنادا ... ولما جد به الجد ، ولم يكن بد مما ليس منه بد ، ذهب إليها فى ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع ، ثم تعلق بالبوابة ، وكانت حبيبته ترتع وتلعب فى حديقة القصر ، فهتف بها وقال : « أيتها القاسية أناجزرتيه إسمعي ! لقد قهرت قلبي وغزوت نفسى وتم لك النصر ! فهنيئاً لك ! تغنّى أناشيد الفرح واللذة الصارمة لأنك قتلت إيفيس ! إعقدى فوق هامتك إكليل الغار لأنك أذللت قلبه العزيز ، ومرغت فى التراب روحه العالية . . . ولكن اصغى إلى يا متحجرة القلب ... لقد عولت على أن أشرب كأس المنون ، ولكنى آثرت أن أشربها أمامك إن لم يكن بين يديك ، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر الوجع الأخير ، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك على ... بيد أنى أهتف بك يا آلهة السموات أن تثأرى لى ، وأن تجعلى لى ذكراً فى قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف ، ويتذاكره الناس فى طويل العصور والآباد ... » وكانت السماء كلها تصغى لما يقول إفيس فلبّت واستجابت ... وكان قد ربط حبل مشنقته فى قضبان البوابة ، وجعل أنشوطتها فى عنقه ؛ فلما انتهى من مقالته ألقى بنفسه ... وقبضت روحه ! ولم تتحرك أناجزرتيه مع ذلك ، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم يبكون ويضجون ... وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها ، ثم حمل الجثمان فى إران [1] إلى المقابر ، ومر الموكب الحزين من الشارع الذي فيه قصر الفتاة القاسية ،

(١) نعش



معرض عظيم للحضارة الرومانية

احتفل أخيراً فى رومة بافتتاح معرض عظيم إحياء لذكرى الامبراطور أوغسطوس (أوكتافيوس) منشئ الامبراطورية الرومانية ، وذلك لمناسبة انقضاء ألفى عام على وفاته ، وسيبقى المعرض مفتوحاً مدى عام كامل ؛ وقد جمعت جميع الآثار والتحف الفنية المتعلقة بالامبراطور أوغسطوس وعصره وأصلحت ، وأقيمت فى مواقع مناسبة ، وساهمت فى ذلك العمل العلمى الجليل جميع المتاحف الايطالية ، ومعظم المتاحف الخارجية التى تحتفظ بآثار من عصر أوغسطوس ، وفى مقدمتها المتحف البريطانى ؛ وأصلح أثر أوغسطوس العظيم في رومة وهو « الأوغسطيو » أو قبر أوغسطوس الذى يضم رفاته ورفات زوجه وأخته وبعض خلفائه ، وغدا أعظم مناظر هـذا المعرض . وقد استغرق العمل لإعداد هذا المعرض العظيم خمسة أعوام ، وأشرف على تنظيمه من الناحية العلمية العلامة الأثرى الأستاذ جليو جليولي ، وبذل جهوداً عظيمة ليحقق أمنية « الدونشى » فى أن يكون المعرض صورة عظيمة خالدة من الحضارة الرومانية ؛ وقسم المعرض إلى خمسين قسما ، وجمع فيه نحو ثلاثة آلاف تمثال وصورة ونقش من آثار العصر ، ومائتى نموذج تمثل الأثاث الرومانى ، ومجموعات كثيرة من الأنواط والنقود الرومانية ؛ والمقصود أن تقدم هـذه الأقسام المختلفة صورة بارزة من الحياة الرومانية فى مختلف نواحيها ، من الأسرة والحياة الخاصة إلى الدولة والحياة العامة ، والجيش والبحرية والتجارة والصناعة والزراعة والعلوم والفنون . وقد أقيم نموذج كامل لمنزل رومانى فى هذا العصر ، مؤثث بنماذج من أثاث العصر وحفل القسم الحربى بنماذج من السلاح والعدد المعاصرة ؛ وأفرد قسم خاص للدين جمعت فيه تماثيل الآلهة الرومانية ، وآلهة الأمم التي كانت خاضعة للدولة الرومانية ؛ وللنصرانية قسم خاص بهـا جمعت به نماذج وتماثيل تمثل حياة المسيح والرسل والشهداء حتى عصر قسطنطين ، هذا وستلقى خلال العام الذى يقوم فيه المعرض سلسلة قيمة من المحاضرات العلميـة والأثرية عن الامبراطورية الرومانية وعصر أوغسطوس والحضارة الرومانية ، ويشترك في إلقائها أعظم الأساتذة الايطاليين

ولما كانت إيطاليا الفاشية تضطرم اليوم بروح امبراطورية فهى تريد أن تحيى مناظر رومة الامبراطورية ؛ وقد عمل السنيور موسولينى كثيراً فى هذا السبيل ، وبذل عناية خاصة لتجميل رومة ، وإقامة الأبنية الجديدة الضخمة ، وشق الشوارع العظيمة وإصلاح الآثار والهياكل والقناطر الرومانية القديمة ، وإعادة كثير

فصعدت لتنظر إليه ، ولـكنها ما كادت ترى إلى الجثة مسجاة فى النعش حتى تثلجت عيناها ، ثم استحالتا إلى رخام بارد ... وروعت لما أصابها ، وأرادت أن ترجع قليلاً ، ولـكنها لم تستطع لأن الرخام سرى فى قدميها أيضاً ... ثم فى ساقيها ... ثم فى ذراعيها ... ثم فى جميع جسمها ... أما قلبها ، فقد كان رخاماً منذ زمن بعيد ... وكذلك تحولت أناجزرتيه إلى تمثال مازال محفوظاً فى متحف ڤينوس بسلاميس ... عظة وذكرى ... »

وكأنما عملت القصة عملها فى نفس پومونا ... فانذرفت من عينيها الحزينتين عبرتان حارتان ... ونظرت لترى إلى العجوز ... ولـكن ... لقد كان ڤرتمنوس العاشق الحزين الجميل القوى يجلس مكانها ، ويأخذ برأس الفتاة على صدره ... فقالت له :

— من أنت أيها الفتى ؟

— أنا ...

وانفجر فى بكاء شديد وقال :

— حبيبك ڤرتمنوس ياپومونا ...

فقالت : أهو أنت ؟!

وتبادلا قبلات أشهى من الشهد ، وأشد أسراً من الخمر ...

دريني خشبة

٩٠٤٣

من الأسماء اللاتينية ؛ وشجع السنيور موسوليني أيضاً كل الأبحاث الأثرية والعلمية المتعلقة بروما القديمة وحضارتها ، وظهرت في هذا الباب في الأعوام الأخيرة كتب ومباحث قيمة وقد كان عصر الامبراطور أوغسطوس أعظم عصور رومة ، وكانت رومة في عصره حاضرة العالم السياسية والفكرية ، وكانت ملاذ العلوم والآداب ، فلا غرو أن تتخذ إيطاليا الفاشية عصره رمزاً للعظمة الرومانية وأن تعمل لإحياء ذكراه بكل ما وسعت من حماسة وتكريم

ضوء جديد على تطور الأجناس

اشتهر العلامة الإنكليزي السير جيمس فرازر منذ ربع قرن بمباحثه ونظرياته عن تطور الأجناس البشرية ، وله مؤلف جليل شهير في هذا الفن عنوانه Totemism and Exogamy ؛ ولكن نظريات الأجناس البشرية تطورت في العصر الأخير تطوراً عظيماً ، واستطاع السير فرازر أن يخرج من دراساته ومباحثه المختلفة في هذا الميدان بنظريات جديدة يضمنها اليوم مؤلفاً جديداً تحت عنوان Totemica وهذا المؤلف الجديد يعتبر في بابه مجهوداً بديعاً سواء من حيث الوضوح في عرض الآراء والنظريات ، ومن حيث الدقة العلمية والفنية . وللسير فرازر ثلاث نظريات شهيرة في تطور الأنواع البشرية ومؤثراتها تتلخص فيما يأتي : الأولى نظرية الروح الخارجية ، والثانية نظرية الرسوم السحرية التي تجرى لزيادة محصول الغذاء ، والثالثة نظرية التجاذب غير الزوجي لانتاج النوع البشري . والسير فرازر يأتي ضوءاً جديداً على هذه النظريات ، وعلى تفاعلها في تطور الأجناس ، وهو لا يزال على رأيه القديم من أن الانسان الأول كان يعمل عامداً لاجتناب مساوئ الازدواج وأن الإنسان المتوحش له آراء معينة في ضرورة الزواج ، ويلجأ السير فرازر في التدليل على نظرياته إلى العوامل الجغرافية ، ويقول لنا إن الشعوب المتجاورة تمكن المقارنة بينها ، ويمكن تقدير الظروف التي أثرت فيها نظم كل في الآخر . وهو لا يسلم بالرأي الحديث القائل بأن التفاعل الثقافي بين الأمم أشد تأثيراً في تطورها من الاختراع المستقل . ومن رأيه أنه مع التسليم بأهمية الصفات الفردية أو صفات الجماعات ، ومع التسليم بأن الإنسان يستطيع الاضطلاع بمقدار من الاختراع المستقل ، فإن الأمم مدينة في تطورها على الأغلب إلى عامل التقليد ؛ ولنا في اللغات القومية المختلفة أكبر شاهد على ذلك

ويرى العلامة فرازر في أوستراليا أصلح معهد لدراسة التطورات البشرية ، ففي هذه القارة الساذجة لا تزال تمثل عادات الإنسان الأول والعصر الحجري ، وهي العادات التي عرفتها أوربا وعرفها العالم قبل فجر التاريخ ؛ كذلك في جزر المحيط والهند وأفريقية وأمريكا لا تزال تمثل آثار بارزة من ذلك العهد الذي هو أول عهد لتطور النوع الإنساني

تمثال لبلزاك

لم يحظ الكاتب الأشهر أونوريه دي بلزاك كمعظم الكتاب الأعلام من معاصرين ولاحقين بتمثال يخلد ذكره في باريس ، تلك العاصمة العظيمة التي أحبها وخلد حياتها الاجتماعية في أوائل القرن الماضي في كتبه ورواياته . وكان المثال رودان قد تقدم منذ سنة ١٨٩٨ بنموذج برونزي لتمثال لبلزاك ولكنه رفض يومئذ . وأثار رفضه جدلاً عظيماً في الصحف والدوائر الأدبية ، ومنذ العام الماضي تألفت في باريس جمعية كبيرة تضم نحو خمسمائة من أقطاب الآداب والعلوم والفنون لتقوم ببذل المساعي اللازمة لاقامة تمثال لبلزاك من أصل نموذج رودان ، وبالفعل استطاعت أن تحصل على موافقة مجلس بلدية مدينة باريس على أن تعين بذاتها ميداناً يصلح لاقامة تمثال الكاتب الكبير ، ثم اقترحت أن يكون هذا الميدان هو شارعي ملتقى مونبارناس وراسباي وهما في أعظم شوارع باريس . وسيعرض نموذج رودان أولا في بهو الفنون الجميلة ، ثم يصنع تمثال بلزاك على نمطه ، ويقام بعدئذ في الميدان المذكور ، وبذلك يحظي بلزاك بتمثاله بعد مضى أكثر من ثمانين عاماً على وفاته ، وتزدان العاصمة الكبيرة بتمثال كاتبها العظيم

أفريقية مستودع الماس

كان المعروف حتى الآن أن إقليم الترنسفال وناتال في جنوب أفريقية يضم أعظم مناجم للماس في العالم ، ولكن المباحث الأخيرة دلت على أن مستعمرة « سيراليونى » البريطانية في غرب أفريقية قد تصبح في المستقبل القريب مورداً من أعظم موارد الماس في العالم . ففي سنة ١٩٣٠ عثر المستر بوليت أحد مندوبي القسم

الجيولوجي على قطعة كبيرة من الماس في إحدى بقاع المستعمرة؛ فاهتم المعهد الإمبراطورى بالأمر، وأجريت فى هذه البقعة مباحث فنيـة أسفرت عن نجاح مدهش إذ بلغ المستخرج من الماس من هذا المنجم الجديد فى سنة ١٩٣٦ أكثر من نصف مليون جنيه. والمنجم الآن فى يد إحدى شركات الماس الكبيرة تستغله طبقاً للامتياز الممنوح لها فى مساحة تقدر بنحو أربعة آلاف ميل فى شرق سيراليونى.

ويقول مستر بوليت مكتشف المنجم إن أصناف الماس التى استخرجت تضم جميع الأنواع المعروفة من الأنواع الرديئة إلى أثمن وأبدع الأنواع، وقد استخرج النقبون ذات مرة من ياردة مربعة فقط نحو مائتين وخمسين قيراطاً من الماس، وهي نسبة مدهشة. وتزن القطع المستخرجة عادة من ١٢ قيراطا إلى ١٤٤ قيراطا، وقد وقع النقبون ذات مرة على قطعة زنتها ٧٨ قيراطا من أنقى أنواع الجواهر وبلغت قيمتها نحو خمسة آلاف جنيه. والمنظور أن يكون لهذه المناجم الجديدة فى المستقبل القريب شأن عظيم فى انتاج الماس، وربما غدت مثل مناجم الترنسفال موردا من أعظم موارد الماس فى العالم.

ذريعة وباريكاد Barricade

الذريعة لغةً الوسيلة. يقال فلان ذريعتي بمعنى وسيلتي. والذريعة أيضاً عند العرب الناقة التى كانوا يختفون وراء جنبها لصيد الحيوانات المفترسة. كان الصياد يعين الموضع الذى ربما تأتى منه الفريسة، فينيخ ناقته فى مكان قصيّ ويختفى وراء جنبها حتى تأتى وتهجم على الناقة. فإذا دنت منها صوّب الصيّاد نبله إليها فيصيبها

فاختفاء الصياد وراء جنب الناقة للوقاية من هجوم الوحش وانتظاره إياه فى شىء من الأمن ومحاربته عن بعد، ثم هجوم الحيوان الوحشى على الناقة وتعرضه للخطر الكامن وراءها وهى رابضة، ينبهنا إلى حيلة من حيل الإفرنج فى حروبهم الداخلية إذ يسدون الطرق بأكداس من أثاث بيوتهم كموائد ومقاعد تحول بين ناصبي الحيلة وبنادق أعدائهم فيطلقون على تلك الأكداس الواقية لفظة « بَرِّكَادْ » Barricades؛ وإقامة الأكداس لها عبارة مشهورة وهى dresser des barricades

فهل من الجائز ترجمة اللفظة الفرنسية « بركاد » بلفظة « ذريعة » وعبارة dresser des barricades بعبارة « نصبوا الذرائع؟ »

فإلى أرباب اللغة وحماتها أوجه هذا السؤال راجياً الجواب عنه على صفحات الرسالة الغراء ولهم جزيل الشكر

أحمد العربى

طالب بكلية الآداب باريس

الصلات الثقافية بين مصر وجاراتها الشرقية

دأبت وزارة المعارف المصرية في السنوات الأخيرة على تقديم المساعدة إلى جاراتنا الشرقية، رغبة فى توسيع الثقافة المصرية

وقد عاونت وزارة المعارف المدارس الحجازية فى العام الدراسى الماضى، إذ مدت بعض مدارسها بمدرسين مصريين أكفاء على نفقتها الخاصة

وقد تلقت الوزارة نبأ من جدة جاء فيه أن إحدى المدارس الأهلية تلاقى ضيقاً مالياً، وأن بها مدرسين مصريين يقومان منذ أمد غير قريب بالتدريس فيها وأن المدرسة تطلب إلى وزارة المعارف المساهمة فى دفع نصيب من مرتبيهما

وقد أصدر معالى وزير المعارف قراراً باعانة هذين المدرسين رغبة من الوزارة فى السير على خطتها المرسومة

تصويب

جاء فى قطعة (الدمام) فى العدد (٢٢٤) فى الصفحة (١٦٩٤) في السطر (١٩): « زير النوانى » بفتحة على الياء، وهذا تطبيع، وفى مثل هذه الكلمة (النوانى) تقدر الحركة فى حالتى الرفع والجر، وتظهر فى حالة النصب، وهي هنا مجرورة بالاضافة

(م)



أخبار أبي تمام للصولى

لأستاذ جليل

حبيب الطائى ، أو أبو تمّام ، أو أبو التـمّـام[١] ، أو ملك القريض الأول — والملك الثانى هو المتنبي ، والبحترى نائب ملك ثم أمراء (كبار وصغار) ووزراء ، والمعرى شيخ إسلام ، وابن الروى إمام (خليفة) خوارج ، وقواد وعمال ولايات (ولاة) ورعايا وجنود وقَـديديّون[٢] ، ولا ملك ثالث فى المملكة — حبيب هذا شاعر عبقرى أيّ شاعر ، ومنزلتـه هي منزلته ، وشعره هو شعره ، فما تقريظ أو تقحيم بنافعه ، ولا تعييب بضارّه؛ إنه الشاعر ذو العبقرية والإبداع ، وإنه فى سماء القريض الشمس ذات الضياء الباهر والإشعاع ؛ وقد كان الشعر قبل أبي تمام تجربةً وتمريناً ، ومقدمةً وتمهيداً ؛ وكان كلاماً ، ثم جاء ابن أوس وابن الحسين فقالا — وغيرهما مثلهما لا يقول — : « لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة لا يقول مثلها البحترى[٣] » « تحسن أن تقول ولـكن مثل هذا — مثل قول المتنبي — لا تقول[٤] »

وإن الباعث اليوم على هـذا القول هو كتاب فى أخبار (الحبيب) ظهر ، وهو كتاب : « أخبار أبي تمام » تأليف أبي بكرَ محمد بن يحيى الصولى

وكتاب يصنفه إمام الأدباء وسيد الظرفاء أبو بكر الصولى طرفة تحفة دونها كل طرفة . وقد أبى الله أن يضام هذا الـكتاب (كما ضيم من قبلُ ديوانُ هذا الشاعر بتلك الطبَعات الخزيات المحرفات ...) فسخر له أدباء مهذبين مثقفين ثلاثة ، وهم (خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده عزام ، ونظير الاسلام الهندى) — أبٌ وابنٌ وروحُ قُدُس كما تقول النصارى — فحققوه أبلغ تحقيق راجعين فى كل مشكلة إلى الأساتذة الأجلاء : (الأستاذ أحمد أمين ، والدكتور طه حسين ، والأستاذ أمين الخولى ، والدكتور كراوس ، والأستاذ ابراهيم مصطفى) وطبعته (لجنة التأليف والترجمة والنشر) فى مصر أكمل طبع ، واختارت له الـكاغد الجيد

طالعت هذا الـكتاب فألفيت الصولي قد سطر فيه من أخبار أبي تمام مالم نره فى تصنيف من كتب الأدب قبله ، وروى أقوالا لأئمة كبار فى هذا الشاعر لم يطرفنا إياها غيره ،وهي تعالن معالنة بعبقرية (الطائى الأكبر) وعلو منزلته . « قال عمارة بن عقيل : لقد عصفت رائية[١] طائيكم هذا بكل شعر فى لجنها . لله دره ! لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءا له » . و « قال الحسن بن وهب : وأما الشعر فلا أعرف مع كثرة مدحى له وشغفي به فى قديمه ولا فى حديثه — أحسن من قول أبي تمام فى المعتصم بالله ، ولا أبدع معانىَ ، ولا أكمل مدحاً ، ولا أعذب لفظاً ؛ ثم أنشد (البائية العبقرية) ثم قال : هل وقع فى لفظة من هذا الشعر خلل ؟ كان عز للقدماء بيتان يستحسنان فى قصيدة فيجلون بذلك ، وهذا كله بديع جيد[٢] » والقصيدة واحد وسبعون بيتاً . وأما رسالة الصولى إلى مزاحم بن فاتك فى أول الـكتاب فهي كتاب وحدها ، على حدة . وقد أملتها البلاغة

(١) محمد بن يزيد المبرد قال: ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال : ذاك أبو التمام ، وما رأيت أعلم بكل شيء منه (أخبار أبى تمام) للصولى

(٢) القديديون : تباع العساكر من الصناع (الأساس)

(٣) (أخبار أبى تمام) للصولى ، والقول لصاحب الـكامل : المبرد

(٤) ابن نباتة السعدى فى (شرح التبيان) للعكبرى

(١) يعنى التى مطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار !

وهذه الجملة فى خبر فى (أخبار أبى تمام) وقد روى مثله (الأغانى) ورواية الصولى فى كتابه أجل وأتم

(٢) (أخبار أبى تمام)

الصولية الطلّة المذبة العربية ، وفيها العلم والنّصَـفة

* * *

وفى (أخبار أبي تمام) أشياء هينة الخطب أذكرها ليهتم بها فى الطبعة الثانية بعد مدة قريبة إن شاء الله :

فى الصفحة (٥٦) فى السطر (٥) : « خفت إعراضك » وفى الحاشية : « فى الأصل : خفت غرضك ، ولعل الصواب ما أثبتناه » قلت : الأصل (غرضك) هو الصحيح ، والغرض الملل والضجر ، وجملة (كرهت إملالك) بعدها — تحقّ ذلك . والصولى لم يخف إعراض صاحبه لـكنه خاف — إذ طوّل كما حسب — ضجره ، والغرض الضجر

وفى الصفحة (٨٩) السطر (٨) « وأرعف كلَّ ذى قلم خيانته » فهل أزعف هى أزعف (بالزاى) أو أزعفت أى أهلكت قتلت قتلاً سريعاً ؟

وفى الصفحات (٢١٨) (٢٢٣) (٢٤٤) : « كالمعائب ، من معائب ، المخائل » بالهمز ، وهى بالياء فى المعايب والمخايل ، والقاعدة الصرفية معروفة

وفى الصفحة (١٢٣) فى السطر (١٢)

وفوّارة ثأرهـــا فى السما ء فليست تقصر عن ثارها[1]

جاءت الهمزة فى أول عجز البيت وهي من ملك الصدر فى عروضه (في السماء) والبحر من المتقارب والقبض فى عروضه كثير بل هو عند بعضهم أحسن من التمام

وفى الصفحة (١٥٠) :

سقى عهدَ الحمى سَبَـلُ[2] العهادِ وروِّض حاضر منـه وبادى

كتبت (رَوَّض) بالبناء لما سُمى فاعله وهى بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله . ولو أراد أبو تمام الأول لقال : (أروض) وروّض الغيث الأرض : جعلها روضة ، وأروضت الأرض ألبسها النبات ، أو كثرت رياضها

وفى الصفحة (٢١٧)

نجمان شـــاء الله ألاّ يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يَأفلا

جاءت (يأفلا) بالهمز وهي فى البيت مخففة لأن الألف ألف التأسيس

(١) ثارها : بلا همز (٢) السبل (بالباء) : المطر المسبل (الهاطل)

وفى الصفحة (٢٣٠)

فأمل عينك أن تعين بمـائها والدمع منه خاذل ومواسي

رويت (مواسي) بالواو ، وواساه لغة ضعيفة أو رديئة كما فى (الصحاح والتاج) لآساه

وفى الصفحة (٢٣٥)

« عربى عربى اجايئ ماترام » اجاي بهذه الصورة : أجئى — أقعـد وإن لم تكن للهمزة قاعدة نحوية مضبوطة مجمع عليها حتى اليوم

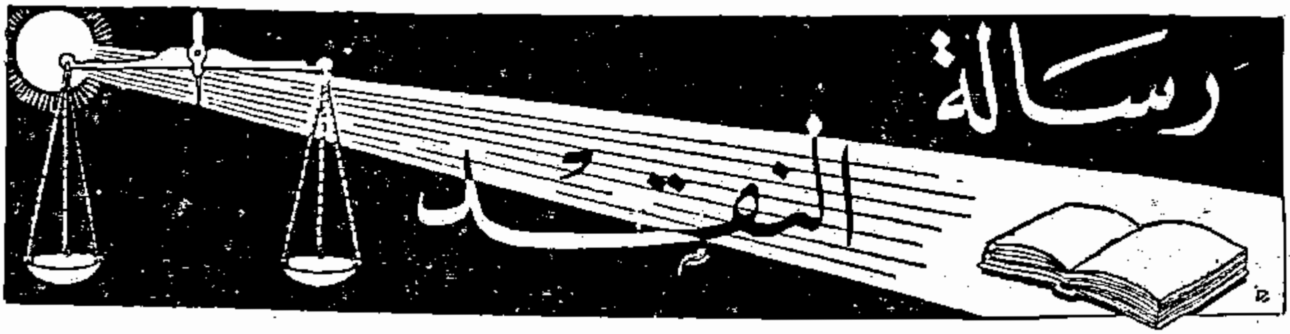
وفى الصفحة (٢٣٨) السطر (٩) :

« هيّجتَ منى شاعراً أَرَبَا » وفى الحاشية : « أرب : أقام بالمكان أو زاد » قلت: ليس للأرب قبلة (جهة صحة) يتوجه إليها معنى ، فهى (الأزبّ) بالزاى أى المنكر الداهى ، والأزب من أسماء الشياطين كما فى (التاج) وأصل الأزب الـكثير الشعر وكذلك أصل الزباء وهى من الدواهى الشديدة ، ومثلها الشعراء وفى (مجمع الأمثال) : جاء بالشعراء والزباء أى بالداهية الدهياء

هذه هى الأشياء القليلة فى الـكتاب وهو (٣٤٠) صفحة. وإذا عرفت أن هناك مصنفاً ضبطه أديب مشهور ، له صيت ، وطبعته مطبعة ، فصادف[1] فيه ناقده قرابة ألف غلطة ــ أعوذ بالله من ذلك !! — تجلت لك فضيلة هذا الـكتاب : أخبار أبي تمام أو أبي التّمام والسلام

(قارئ)

(١) صادف : وجد ، وقد صادف أستاذ لفظة صادف بمعنى وجد فى كلام قائل تخطأه ... لا (صدفة) فى العربية لـكن فيها المصادفة



النحو والنحاة
بين الأزهر والجامعة

للأستاذ محمد عرفة

كتاب ألفه الأستاذ محمد عرفة المدرس بكلية اللغة العربية فى مناقشة كتاب « إحياء النحو » للأستاذ ابراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب . وقد بحث الكتاب فيما أشكل من مسائل النحو وأبهم من علله وأسبابه

وقد أراد مؤلفه أن ينشر منه فصل معانى الاعراب بمناسبة ما دار فى الرسالة من جدل حول معانى الاعراب

معانى الاعراب

يرى مؤلف « إحياء النحو » أن بينه وبين من تقدمه من النحاة خلافاً فى حركات الاعراب ؛ فهم يرون أن هذه الحركات اجتلبها العامل وليست تدل على شيء من المعانى ؛ فالاعراب حكم لفظى خالص يتبع لفظ العامل وأثره ، وليس فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر لها فى تصوير المفهوم

أما هو فيرى أن حركات الاعراب دالة على معان ، وأنه قد استكشف أصلاً عظيماً وهو أن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعانى وأنه رأى أن الضمة علم الاسناد وأن الكسرة علم الاضافة ، وأما الفتحة فهى الحركة الخفيفة عند العرب يلجأون إليها إذا لم تكن بهم حاجة إلى أن يبينوا أن الكلمة مسند إليها أو مضافة . أنظر كتاب إحياء النحو ص ٢٢ و٤١ و٤٨ و١٩٤

تر المؤلف قد وضح طريقه وهو أن المتقدمين جعلوا الاعراب حكما لفظياً ، وأن علاماته لا تدل على معنى ، وأنه قد هدى إلى معان لعلامات الاعراب خفيت على النحويين . وهذا عمل جليل وابتكار وإبداع لو تم له

ومشايعة المؤلف على هذا الرأى ظلم عظيم للنحاة المتقدمين منهم والمتأخرين ؛ وإن من غمط النحاة حقهم ، ومن ظلم تاريخ النحو أن ننسب إلى النحاة أنهم كانوا يرون أن علامات الإعراب لا تدل على معنى ولا تؤثر فى تصوير المفهوم . وإننا إذا شايعنا المؤلف على هذه الفكرة رأى سكان الأقطار العربية ومن يأتون بعدنا أننا لم نفهم النحو ، وأن مصر تدرس النحو وتقرأه فى كتب المتقدمين والمتأخرين ولا تفهم أقوالهم الواضحة فتعزو إليهم ما لم يقولوه

وأنا أبادر إلى بيان رأى النحاة فى علامات الإعراب وأقرر أنهم جميعاً — لا مستثنياً أحداً — يرون أن الحركات علامات على معان تركيبية ؛ وأنهم قرروا أن الضمة علم الفاعلية ، وأن الفتحة علم المفعولية ، وأن الجر علم الاضافة ، وأنه لا فرق بين ما ذهب إليه الأستاذ من أن الحركات أعلام على معان ، وما ذهب إليه النحاة . وأنا أؤكد للأستاذ المؤلف أنه ما من نحوى واحد ذهب إلى أن الإعراب حكم لفظى خالص وليس فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر فى تصوير المفهوم ، وإنى أتحدى — وأنا أقصد ما أقول — من يخالفنى أن يقيم الدليل على ما يقول

إن علماء النحو جميعاً يرون أن الحركات دوال على معان وقد صرحوا به تصريحاً جلياً

أليسوا قد ذكروا فى سبب وضع النحو أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئاً يقرأ (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بالجر فقال : معاذ الله أن يكون بريئاً من رسوله . اقرأ (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بالرفع ؛ فالكلام واحد ولم يتغير فيه إلا حركة اللام ، فإذا حركت بالجر أدى إلى كفر ، وإذا حركت بالرفع أدى إلى معنى مستقيم لا كفر فيه . فهل كانوا يروون ذلك وهم يرون أن حركات الإعراب لا تدل على معنى ولا أثر فيها لتصوير المفهوم ؟

أليسوا يذكرون أن أبا الأسود سألته ابنته : ما أحسن السماء يا أبت (برفع أحسن وجر السماء) فقال : نجومها . فقالت : لا أريد هذا أنا أتعجب من حسنها . فقال : ماهكذا تقولين ، قولي ما أحسن السماء (بفتح أحسن ونصب السماء) هل كانوا يحكون هذا ويتداولونه في كتبهم وهم يرون أن الحركات لا تدل على معنى في لغة العرب ؟

أليسوا قد عرفوا العامل بأنه ما به يتقوم المعنى المقتضى للاعراب ؟ أليس ما حكوه من قول ابن مالك :

ورفع مفعول به لا يلتبس   ونصب فضلة أجز ولا تقس

كان كافياً لأن ينبه المؤلف إلى أنهم يعتقدون أن علامات الاعراب دوال على المعاني ؟ فالبيت معناه أن الرفع علامة الفاعلية والنصب علامة المفعولية ؛ فان كان هناك موضع تميز فيه الفاعل عن المفعول بغير العلامة فأعط كل واحد منهما علامة الآخر ما دام لا يلتبس ككسر الزجاجُ الحجرَ فانه معلوم هنا الكاسر من المكسور . أليسوا قد ذكروا أن الأصل في الأسماء الاعراب وعللوا ذلك بأنها هي التي تتعاور عليها المعاني المقتضية للاعراب كالفاعلية والمفعولية الخ ؟ أليسوا عند تفسير القرآن أو الشعر يعربونه أولاً ثم ينزلون المعنى على حسب هذا الاعراب ويعربونه إعراباً آخر فينتظم نظاماً آخر ثم ينزلون المعنى على حسب هذا النظم ؟

وذلك كقوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » بالنصب ، والمعنى عليه أن الذين يخشون الله هم العلماء ، وعلى القراءة التي ترفع لفظ الجلالة وتنصب العلماء يكون المعنى لا يخشى الله أحداً إلا العلماء

إن النحو كله مبني على أن حركات الاعراب دوال على معان تركيبية مقصودة من الكلام ، ومن لم يفهم هذا الأصل لم يقدر أن يفهم علم النحو ولا آراء المفسرين ولا آراء علماء العربية في تفسير الشواهد والقصائد من الشعر

فاذا لم يقنعك هذا دليلاً على أن علماء النحو يعتقدون أن علامات الاعراب دوال على معان ، فسنأخذ في بيان أصرح ، وسننقل لك من كلامهم ما هو أوضح

قال الخضري في حاشيته على ابن عقيل في ص ٣٠ في بحث المعرب والمبني : « وإنما أعرب المضارع لشبهه الاسم في أن كلا منهما يتوارد عليه معان تركيبية لولا الاعراب لالتبست . فالتواردة على الاسم كالفاعلية والمفعولية والاضافة في ما أحسن زيداً ، وعلى الفعل كالنهي عن كلا الفعلين أو عن أولهما فقط أو عن مصاحبتهما في نحو لا تعن بالجفا وتمدح عمراً . ولما كان الاسم لا يغني عنه في إفادة معانيه غيره كان الاعراب أصلا فيه بخلاف المضارع يغني عنه وضع اسم مكانه كأن يقال في النهي عن كليهما ومدح عمرو وعن الأول فقط ، ولك مدح عمرو ، وعن المصاحبة مادحاً عمرا . فكان اعرابه فرعاً بطريق الحمل على الاسم . هذا ما اختاره في التسهيل »

وقال ابن يعيش في شرح المفصل للزمخشري في ص ٧٢ من الجزء الأول :

« والاعراب الابانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها . ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيدْ عمرْو بالسكون من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول ؟ ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الاعراب . ألا ترى أنك تقول ضرب زيد عمرا ، وأكرم أخاك أبوك ، فيعلم الفاعل برفعه والمفعول بنصبه سواء تقدم أو تأخر

فإن قيل فأنت تقول ضرب هذا هذا ، وأكرم عيسى موسى وتقتصر في البيان على المرتبة ، قلت هذا شيء قادت إليه الضرورة هنا لتعذر ظهور الاعراب فيهما . ولو ظهر الاعراب فيهما أو في أحدهما ، أو وجدت قرينة معنوية أو لفظية جاز الاتساع بالتقديم والتأخير »

وقال الزمخشري في المفصل ص ٧١

« القول في وجوه إعراب الأسماء »

« هي الرفع والنصب والجر وكل واحد منها علم على معنى ؛ فالرفع علم الفاعلية ، والفاعل واحد ليس إلا : وأما المبتدأ وخبره وخبر إن وأخواتها ، ولا التي لنفي الجنس ، واسم ما ولا المشبهتين بليس فلحقات بالفاعل على سبيل التشبيه والتقريب ، وكذلك النصب علم المفعولية ، والمفعول خمسة أضرب : المفعول المطلق والمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له . والحال والتميز

والمستثنى المنصوب والخبر فى باب كان ، والاسم فى باب إن والمنصوب بلا التى لنفى الجنس وخبر ما ، ولا المشبهتين بليس ملحقات بالمفعول

والجر علم الاضافة ، وأما التوابع فهى فى رفعها ونصبها وجرها داخلة تحت أحكام المتبوعات ، ينصب عمل العامل على القبيلين انصبابة واحدة »

وقال ابن يعيش فى شرحه ص ٧٢ :

« وجوه الاعراب . يريد بها أنواع إعراب الأسماء التى هى الرفع والنصب والجر ، لأنه لما كانت معانى المسمى مختلفة : تارة تكون فاعلة وتارة تكون مفعولة وتارة تكون مضافاً إليها كان الاعراب المضاف إليه مختلفاً ليكون الدليل على حسب المدلول عليه .. وقوله (وكل واحد منها علم على معنى) يريد الرفع والنصب والجر كل واحد منها علَمٌ على معنى من معانى الاسم التى هى الفاعلية والمفعولية والإضافة. ولولا إرادة جعل كل واحد منها علماً على معنى من هذه المعانى لم تكن حاجة إلى كثرتها وتعددها ؛ ثم قال فالرفع علم الفاعلية فقدم الكلام على الفاعل من بين المرفوعات لا سيما المبتدأ لمشاركته فى الإخبار عنه ، وذلك لأن الفاعل يظهر برفعه فائدة دخول الاعراب الكلام من حيث كان تكلف زيادة الاعراب إنما احتمل للفرق بين المعانى التى لولاها وقع لبس ؛ فالرفع إنما هو للفرق بين الفاعل والمفعول الذى يجوز أن يكون كل واحد منهما فاعلاً أو مفعولاً »

كلام الأستاذ إبراهيم مصطفى صريح فى أن النحاة جعلوا الاعراب حكما لفظياً خالصاً ، ولم يروا فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثراً فى تصوير المفهوم . وكلام النحاة صريح لا لبس فيه أيضاً فى أن الاعراب حكم معنوى وأنهم يرون أن الحركات دوال على معان وبينوا كل معنى ، وكل حركة تدل عليه ، والنحو كله مبني على ذلك لا يمكن أن نفهم قواعدهم ، ولا أن نفهم اللغة العربية إلا على ذلك ، وهو من الوضوح بحيث لا يخفى على مبتدئ فى تعلم النحو بله الدارسين له والمتخصصين فيه

ليت شعري ، ماذا نفهم فى هذا الموقف المحير ، موقف الأستاذ من نصوص المتقدمين فى هذه المسألة ؟ أنفهم أنه فاته وجه الصواب فيها ، وهو من وقف حياته على دراسة النحو ، ووقف سبع سنين من عمره فى بحث هذه المسائل ؟

أم أفهم أن المؤلف لم يخف عليه وجه الصواب فى هذه المسألة عند النحويين ولكنه نَفِسَهُ عليهم وأغرم بالتجديد ، فحرمهم علمهم وتجاهل هذه النصوص التى تتكرر فى كل كتاب

إنني حاولت نفسى على فهم ذلك ، ولكن منعنى أن الأستاذ ابراهيم حجة ثبت وهو كما يقول الدكتور طه حسين فى المقدمة (له أمانة فى الرأى والنقل جميعاً)

على أن هذا البحث الشخصى لا يعنينا فسواء علينا أكان هذا أم ذاك ، إنما الذى يعنينا هو أن ننصف شيوخ العربية وقد كاد يظلمهم بعض من تربوا فى حجورهم وتثقفوا على أيديهم ، وأن ننير تاريخ علم العربية . فإن كنت قد بلغت بعض ذلك فجدود ساعفت ؛ وبحسبى أن أؤدى فى هذا الكتاب ديناً فى عنقي لقوم راحوا وخلفوا هذه الثروة العلمية فى النحو والصرف واللغة والبلاغة جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة ، وهم

بعد الممات جمال الكتب والسير

محمد عرفة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧